دون ديليلو

فنانة الجسد

ترجمة: محمد عيد ابراهيم

رواية

إشراقات
للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كاملة لرواية

The Body Artist
Don Delillo
London, 2002

فنانة الجسد

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

إشراقات
للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كاملة لرواية

The Body Artist
Don Delillo
London, 2002

فنانة الجسد

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

المحتويات

لمحة زمن عابر	9
الفصل الأول	13
راي روبلز، 64، شاعر سينما لأماكن مستوحشة	30
الفصل الثاني	33
الفصل الثالث	42
الفصل الرابع	50
الفصل الخامس	66
الفصل السادس	79
فن الجسد بتطرفه: بطيء، مقتصد ومعذّب	90
الفصل السابع	96
للمترجم	109

لمحة زمن عابر

تضحّي رواية «فنانة الجسد» بالاتساع مقابل العمق، فهي تضيّق منظورها على حياة واحدة، وموت واحد. لكنها تملك عليك منافذ الإحساس، بكل ما تطلقه من ملامس الأشياء فوق وعي جلدك، ومسام روحك. بطلة الرواية هي لورين هارتكي، التي نراها تشارك زوجها، راي، الإفطار بالصفحات الأولى. وهي صفحات تدلّ على ألمعية باهرة لروائي كبير. تمرّ أفكار مرحة على بال لورين وهي تصبّ الحبوب، أو تفتح الصنبور، أو تطلّ من النافذة، أو وهي تدير حواراً سخيفاً لا طائل من ورائه غير اللعب بالفن.

يمضي راي من مائدة الإفطار، إلى منزل زوجته السابقة، ليفجّر رأسه. ثم يترك للقارئ أن يفكّ الألغاز، التي لا تنفكّ في النهاية. عادت لورين من جنازة راي، لتستأجر نزلاً صيفياً فتكتشف حياة مستخفية غريبة في حجرة فارغة، رجل عييٌ لا يملك الإفصاح عن نفسه، قد يكون معوّقاً، وهو هناك من أسابيع. حضوره قاس عليها، ثم يبدأ هذا الكيان الملغز الكلام بصوت راي، وصوتها، يستعيد حواراتهما تقريباً قبل انتحار راي.

هل تناسخ زوج لورين؟ أم كان الرجل ببساطة مجرد معتوه يختلس السمع، ثم يعيد إنتاج العبارات التي سمعها من قبل في

مخبئه؟ لا يفضّ دون ديليلو[1] الموقف. بل يدع لورين تخطو إلى مزيد من الالغاز، وتتأمل ما تريد من ذلك التماهي الظاهر بين الماضي والحاضر، الحياة والموت. يقول ديليلو:

«هكذا المزاج. صوت وتدافع وضباب وراءك فتنسلّ إلى حياتكَ من جديد، تحسّ بثقلٍ مؤلم في صدركَ».

وبخبرة عالية، يسعى إلى التجريد في رواية صغيرة الحجم، لكنها تقلق روحك بالمغامرة والخطر. فعليك أن تستعذب أو تستطعم كل فقرة، بل كلّ عبارة، أو بالأحرى كلّ كلمة، فالرواية تأسر اللبّ وتثير الخيال. انظر إليه يستذكر:

«لماذا لا يجلب عليك موت من تحبه الدمار الشنيع؟ فأنت لا تعرف كيف تحبّ من تحبهم إلى أن يختفوا فجأة. ثم تفهم كيف ابتعدت قليلاً عن معاناتهم، كم كنت توفر على نفسك غالباً، بقلب غير محترس إلا نادراً، فتشغّل شبكاتك من العطاء والأخذ».

رواية «فنانة الجسد» هي الرواية الحادية عشرة لـ دون ديليلو، والتي أصدرها بعد ثلاثين عاماً من الإبداع، وكلها روايات من العيار الطويل، وهو المعروف بأستاذيته التي تكرّر نجاحاته رواية بعد أخرى، خاصة «أمريكانا» و«عالم تحتيّ». يقدم فيها رؤية ما بعد حداثية للحياة، التي تعبر عن نفسها في الحكاية التي يتم سردها بصوت يعيش في زماننا، صوت أرواح منسية تسكن أصابعنا وتحاور

(1) دون ديليلو: روائيّ أمريكيّ، مؤلّف عدد كبير من الروايات: أمريكانا، نطاق النهاية، لاعبون، كلب راكض، الأسماء، صوت أبيض، برج الميزان، ماو الثاني، عالم تحتيّ، وغيرها. ومعظمها احتلّ لقب أفضل المبيعات في أمريكا وأوروبا. نال جائزة الكتاب القومي، وجائزة بن فوكنر للرواية، وجائزة ايريش تيمز للرواية. وهو عضو الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب. (م).

ثقافتنا فيما هو أكبر من الحياة، أكبر من أجسامنا وهي تعيش الحياة.

يسكن دون ديليلو عالم هارتكي، «فنانة الجسد»، التي تتحدّى بعملها حدود الجسم الفيزيقية، وتواجه رجلاً غريباً، دون عمر محدّد، ويبدآن رحلة في برية الزمن، الزمن والحبّ وكل مدركات الإنسانية. وكما يقولون، إن الروايات الفذّة تعلمنا كيف نقرأها. فالكتاب يخلق مزاجه الخاص ونبرته المميزة وصوته السرديّ المتألّق. وتتحدّث كل شخصية بكلمات مؤثرة تقارب قصائد النثر. ورغم أن الحوار قليل، إلا أنه يدعم كيان الرواية ويأسرك بعمليات القطع واللصق التي يجب على القارئ الحصيف أن يعيد تركيبها ليستعيد توترها.

قد يشتكي القارئ أن هذه الرواية دون أحداث، بليدة المحتوى، لا تفضي إلى شيء في النهاية، فهي عن لا شيء في الحقيقة. لكنه لو أغلق الباب، ونحّى الفهم جانباً، فسيجد نفسه منفتحاً على معجزة باهرة. إن الرواية تتمثّلنا ضمن تجليات كلّ شخصية، وتستكشف من خلال ثقب أسود ما يحدث للحبّ حين يموت فجأة، الحبّ الذي راح ولم يعد له ثمة وجود حيّ.

عليك، كي تستمتع بالرواية، أن تهيم في دروب من الوعي والعبارات المتكررة والأشباح، كي تتوق لإعادة الحياة، تتألّم على لمسة، لتتحقّق الكينونة، فتسمع الكلمات التي قيلت ذات يوم، التي كانت جزءاً من حياتنا اليومية، في عاديتها وابتذالها أحياناً، لأنها تشكل جزءاً من زماننا. وتعبر البطلة، فنانة الجسد، عن كنه هذا العبث اللامجدي، وتقترح حلولاً وتفسيرات لما لا يُفسّر. فهل كان الرجل ضيفاً حلّ على المنزل، أم كان صيغة من احتلال ذات انقرضت بنوع من التواصل للتعويض عن غياب راي؟ أم أن هارتكي امرأة يائسة من حزنها وعزلتها تخترع أوهاماً فحسب؟

تأكّد أنك في المزاج الصحيح لتقرأ مثل هذه الرواية، فليست تقليدية ولا درامية ولا مسطّحة، ولا حبكة فيها. لكنها سترغمك على التفكير في طبيعة الهوية ومن نحن. إنها نوع من الخرافة الحديثة، أكثر من كونها رواية. فالعبارات قصيرة مقشّرة في شذرات أحياناً، ورغم خفّتها إلا أنها كثيفة في الآن نفسه. فعليك أن تقرأ بنظرة فنية، وستنال مكافأتك في النهاية.

هل نعرف الحبّ فقط حين نفقده؟ فالحياة تمضي، بصدمة غير متوقّعة، هل نعتبرها خطأنا؟ وهل نحسّ بالذنب لأننا عاجزون عن الفهم؟ كيف ينفجر كون وجودنا، ويتحلل روتين حياتنا، مخلّفاً وراءه العدم فجأة؟ فيا لها من رحلة! في البداية تحبطك الأسئلة، ثم تسكن حياتك بمعانيها الراقدة كأصل الغصن في الغصن.

م.ع.أ

الفصل الأول

يبدو الزمن عابراً. العالم واقعٌ، ينبسط إلى لحظات، بينما تَفِد لتُحدّق في عنكبوت منضغط بنسيجه. هناك لمحة نور وإحساس بأشياء محدّدةٍ بدقّة مع خطوط بريق جارٍ على الخليج. تعرف هويّتكَ أكثر في يوم صافٍ بعد عاصفة حين تُطعن أصغر ورقة متهاوية بوعي الذات. تُحدثُ الريحُ صوتاً بأشجار الصنوبر والعالم يقتربُ من كينونة، صعبة الإبطال، ويركب العنكبوت نسيجَه المترنّح في الريح.

حدث هذا في الصباح الأخير، وهنا في الوقت نفسه كانا في المطبخ، يسير كلاهما متثاقلاً أمام أحدهما الآخر لإخراج أشياء من الخزائن والأدراج ثم يرقب أحدهما الآخر جنب الحوض أو الثلاجة، يلبثان قليلاً مكدَّريْن بحلم ذائب، أجرَت ماء الصنبور على التوت المضموم بيدها وهي تغلق عَينيها لشمّ نكهته المتصاعدة.

جلس مع الصحف، يقلّب قهوته، كانت قهوته وفنجانه يشتركان في الصحف لكنها تخصّها، فعلياً ودون كلام.

«أريد قول شيء لكن ماذا».

أجرَت ماءً من الصنبور وبدا أنها تراقب. أول مرة تراقب هذا.

قال «عن المنزل. هذا هو. شيء قصدتُ أن أخبركِ إياه».

راقبت تحوّل الماء من الصنبور إلى لون كامد في ثوانٍ. يجري فضياً ثم صافياً ثم يستحيل في ثوانٍ إلى كامد. وبدا الأمر فضولياً طيلة

هذه الأشهر وطيلة هذه الأوقات التي تُجري فيها ماءً من صنبور المطبخ فلم تكن في البداية تراقب كيف يجري الماء صافياً ثم لا يصبح معتماً بالضبط بل كامداً، أو ربما لم يحدث ذلك من قبل، أو أنها راقبته ونسيت.

سارت نحو الخزانة والتوت مبتلاً في يدها وتوصّلت للحبوب فأخذت العلبة إلى النضد، العلبة بيضاء في بُنيّ أكثر، ثم فرقع شيء محمّص وهي تقلبه من جديد فقد كان يحتاج إلى قلبتين ليسمرّ الخبز، أوما وهو غائب العقل بمعرفة أنه خبزه المحمّص وزبدته ثم فتح الراديو على حالة الطقس.

كانت الطيور عند ملقم الطعام، تخبط بأجنحتها، تقاتل لنيل مساحة فتجثم محنية.

توصّلت إلى إناءٍ بالخزانة القريبة وهزّت الحبوب لتخرج بعضها من العلبة ثم أسقطت عليها التوت. حكّت يدها في بنطلونها الجينز لتجففها، وأحسّت في المكان باللون الأزرق، مرتشحاً باهتاً.

ماذا تُدعى، الرافعة. ضغطت الرافعة لأسفل كي يسمرّ خبزه.

كان خبزه المحمّص، وكانت حالة طقسها. تنصت للتقارير وتتّصل برقم حالة الطقس مراراً وتقف بالخارج أحياناً وهي تنظر أمامها نحو السماء على الساحل، تتذوّق طعم النسيم للتطمين المرتَقَب.

قال «نعم بالضبط. أعرف ما هذا».

ذهبت إلى الثلاجة وفتحت الباب. وقفت هناك تتذكّر شيئاً.

قالت «ماذا؟» تعني ماذا قلتَ، لا ماذا تريد أن تخبرني.

تذكّرت حبيبات الصويا. مضت للخزانة فأخذت العلبة ثم لمحت

باب الثلاجة فصفقته. توصّلت للحليب، أدركت ما قال ولم تسمعه منذ ثماني ثوانٍ.

عليها كلّ مرة أن تنحني لتصل الأجزاء الأبعد والواطئة من الثلاجة حتى لتطلق آهة، لكن ليس كلّ مرة، هذه الآهة مثل نعيب الحياة. تبدو في إجهادها متأنّقة رشيقة خاصة وهي تردّد صدى راي بالضبط، تتأوّه آهته، لكن بعمق غير ملائم كان مصدر إزعاجها أيضاً.

تذكّر الآن ما كان ينوي إبلاغها به، لكن يبدو أنه فقد الاهتمام. لم تر وجهه لتعرف. كان شيئاً طياراً. حدث في السكتة التي تبعَت تعليقه منذ ثماني عشرة، اثنتي عشرة ثانية. شيء غير مميّز. يدّعيه كنوع من دناءة النفس، ما يستجلب أمراً عابراً.

ذهبت إلى النضد وصبت الصويا فوق الطحين والفاكهة. الرافعة انطلقت أو أُطلقت فنهض لإحضار خبزه المحمّص إلى المائدة ثم تناول الزبدة، وكان عليها أن تنحرف بعيداً عن النضد وهو يقترب، فاتّزن كرتون حليبها، واستطاع فتح الدرج ليأخذ سكين الزبدة.

أصوات بالراديو تبدو كألحان هندية.

صبّت حليباً بالوعاء. جلس ثم نهض. ذهب للثلاجة ليحضر عصير البرتقال ووقف وسط الحجرة يهزّ الكرتون ليطفو اللباب فيجعل العصير أشدّ كثافة. لم يتذكّر العصير حتى اسمرّ الخبز. ثم هزّ الكرتون، صبّ العصير وراقب قشدة الرغوة وهي تحتشد أعلى الكوب.

التقطت شَعرةً من فمها فأخرجتها. وقفت عند النضد تتطلّع فيها، خيط شاحب قصير لا يخصها ولا يخصه.

وقف يهزّ الحاوية. ظنّت أنه هزّها أطول مما يجب فلم يكن يلقي بالاً، وكان يشبعه ببراءة وغباء كصورة طفولية، حيويةُ الشراب ودفقُه

ونكهةُ البرتقال من الكرتون.

قال: «تريدين بعضاً منه؟»

تنظر إلى الشَعرة.

قال: «أخبريني فلستُ متأكداً. هل تشربين العصير؟»، وكان لا يزال يهزّ الشيء اللعين، يخاصر إصبعاه مكان الانبجاس.

حكّت أسنانها العليا بلسانها للتخلّص من منظومة ذكراها الحسّاسة المعقّدة عن شَعرة شخصٍ آخر.

قالت: «ماذا؟ لا أشرب هذا الهراء. أنت تعرف. منذ متى نعيش معاً؟»

قال: «ليس طويلاً».

تناول كوباً، صبّ العصير وراقب الرغوة تختفي. ثم انعطف قليلاً يتألّم في مقعده.

قال: «ليس طويلاً حتى ألحظ هذه التفاصيل».

«أظنّ دائماً أنه ما لا يُفترَض حدوثه. لا يحدث بأيّ مكان إلا هنا».

قال: «ماذا؟»

«شَعرة في فمي. من رأس شخصٍ آخر».

وضع الزبدة على خبزه المحمّص.

«تظنّينه يحدث فقط بالمدن الكبرى مع سكان مختلطين؟»

«أيّ مكان إلا هنا». أمسكت خيط الشَعرة بين إصبعيها الإبهام والسبابة، تستعرضها بمَقتٍ ساخر، أو بمقت حقيقيّ امتدّ إلى حدودٍ،

فمها بموقفٍ مشلول. «هذا ما أظنّ».

«ربما تحملينها منذ الطفولة». عاد إلى صحيفته. «تربّين كلباً أليفاً؟»

قالت: «أهلاً. ماذا نبّهكَ؟»

كانت صحيفتها. الهاتف كان يخصّه إلا عندما تخابر حالة الطقس. كلاهما يستخدم جهاز الكمبيوتر لكنه يخصّها روحياً.

وقفت عند النضد تنظر في الشَعرة. ثم نثرتها بإصبعيها إلى الأرض. دارت نحو الحوض فأجرت ماءً ساخناً على يدها ثم أخذت وعاء الحبوب للمائدة. جفلت الطيور حين انتقلت قرب النافذة.

قال: «رأيتكِ تشربين جالونات من العصير، كمية هائلة، فماذا أقول لكِ؟»

فمها مستهزئ من تجربة مشاركة حياة مجهولة مع أحد يتناول طعاماً أو من حقيقة أشدّ غرابة وأكثر تلوّياً، ذلك المرور الحميم لشَعرة من شخصٍ لآخر ومن فم لفم عبر سنين ومدن وأمراض وأطعمة متّسخة وكثير من سوائل الجسمِ المهلكة.

قالت: «ماذا؟ لا أظن».

طيب، وضعت الوعاء على المائدة. ذهبت إلى الموقد، تناولت إبريق الشاي وملأته من الصنبور. كان يغيّر محطات الراديو وقال شيئاً فاتها. أخذت الإبريق إلى الموقد ثانيةً فهي الطريقة التي تمارس بها حياتك إن لم تكن تعرف ثم حكّت أسنانها بلسانها من جديد، لمزيد من التوكيد، وهي تراقب النار تنطلق زرقاء من الشعلة.

كانت تفتح المطواة بعيداً عن النضد حين اقترب ليأخذ سكّين الزبدة.

انتقلت إلى المائدة فجفلت الطيور عن ملقم الطعام ثانية. خرجت من الظلّ تحت الأفاريز وطارت في بَهرةِ الشمس والصمت لكنها رأت ذلك الفعل جزئياً، مراوغاً وبديعاً أبكم، تضرب الشمس الطيور حتى ليستنفد النور قواها، فتتحرّر من أجسامها، تستحيل إلى شيء شفاف وزائل وبرق وامض.

جلست تتصفّح أجزاء من الصحيفة فأدركت أنها لم تجلب ملعقة. لا ملعقة لها. نظرت إليه فرأته يعالج شيئاً باستهزاء في جانب فكّه .

استخدمَت الإبريق المنبعج القديم بدلاً من الجديد الذي اشترته مؤخراً. لم تعرف لماذا. كان بيتاً عتيقاً بحجرات كثيرة ومصطليات شغّالة وحيوانات على الحوائط وعفن بكلّ ناحية، مكان استأجراه قبل رؤيته، من رفات سنين مزدهرة بتجارة قَطع أخشاب وبناء سفن، مكان كبير، وهناك ألواح أرضية صرّارة وأدوات نافعة مطوية يعلم الله تاريخها.

نهضت من نصف سقطة عن مقعدها بلمحة سخرية ذاتية ثم راحت إلى النضد لتناول ملعقة. أخذت حبوب الصويا إلى المائدة أيضاً. للصويا رائحة لا يبدو أنها تخصّ الهراء الرمليّ بالعلبة. رائحة نتن قمحيّ خفيف تختلط برائحة أقدام. كلّ مرة تستخدم الصويا تشمّ هذا. شمّته مرتين أو ثلاثاً.

«جرحت نفسكَ ثانيةً».

«ماذا؟» وضع يده على فكّه، غطّس رأسه بالصحيفة. «مجرد حزّ».

بدأت تقرأ قصة في قسمها من الصحيفة. صحيفة صنداي قديمة، من البلدة، فلا يوجد هنا موزّعون.

«الوقت متأخر. لا أعرف، قد لا يلزم أن تحلق ذقنك أولاً. اصح

أولاً. لَمَ تحلق أصلاً؟ دع شاربك يكبر كما كان. رَبِّ ذقناً».

قال «لِمَ أحلق أصلاً؟ هناك سبب. أودّ أن يرى وجهي الله».

رفع بصره عن الصحيفة وضحك بطريقته الفارغة التي لا تحبّها. أخذت قضمة من الحبوب وتطلّعت في قصة أخرى. مالت أخيراً إلى تركيز نفسها، تُقحم نفسها في قصص معينة بالصحيفة. نوع من تبديل أحلام اليقظة. تفعل ذلك ثم تعي أنها فعلته ومن ثم تفعله ثانيةً بعد دقائق معدودات أحياناً مع قصة مختلفة أو القصة نفسها وتعيه من جديد.

تناولت علبة الصويا دون رفع بصرها عن الصحيفة وصبّت بعض الحبوب بالوعاء وكان بالراديو كلام عن المرور.

كانت فكرتها أن تنهك الإبريق القديم، تستخدمه حتى يصبح فقّاعة صدئة ومن ثمّ فقط يحين وقت تحوّلها إلى الإبريق الذي اشترته مؤخراً.

«تنصتين إلى الراديو؟»

«لا» قالت وهي تقرأ الصحيفة. «ماذا؟»

«مزعج فعلاً».

الطريقة التي شدّد بها كلمة مزعج، تفخّم الكلمة.

قالت: «لم أفتح الراديو. أنت فتحت الراديو».

ذهب إلى الثلاجة وعاد بثمرة تين سوداء كبيرة ثم أغلق الراديو.

قالت: «هات قطعة»، وهي تقرأ الصحيفة.

«أنا لا ألوم. مَن فتحه، مَن أغلقه. هناك شخص عصبيّ هذا الصباح. وماذا أقول، هذا موقفي دفاعيّ. وهو غير موقف المرأة

الشابة التي تأكل وتنام وتعيش إلى الأبد».

«ماذا؟ راي. اخرس».

قضم السويقة ثم رماها في الحوض. وشطر التينة ليفتحها بظفرَي إبهاميه وأخذ الملعقة من يدها ثم لحسها واستخدمها ليغرف قطعة قياسية من اللحم الأحمر الأرجواني الداكن من جلد التينة المنفرجة. أسقط هذا الهراء على خبزه المحمّص. اللحم، الجريش، اللباب. ومن ثم فرش بقاع الملعقة، زبدة دموية تدور فتنتأ منها حياة البذور.

قال بمكر: «أنا الممسوس في الصباح. أنا النادب. المرتعب من يوم عاديّ آخر. لا تعرفين هذا بعد».

أخبرته «امنحنا جميعاً الفرصة».

مالت للأمام، مدّ الخبز. هناك غربان على الشجر قرب المنزل، تطلق صيحتها الأجشّ. أخذت قضمة وأغلقت عينيها لتفكر بالطَعم.

ردّ ملعقتها. ثم فتح الراديو وتذكّر أنه قد أغلقه تواً فأغلقه من جديد.

صبّت حبوباً بالوعاء. تقع رائحة الصويا بمنزلة بين عطر الجسم، بأدنى درجاته وبين حياة الصويا كقَرَنيّة أصليّة في عمق البذور بالأرض. لكن ذلك لا يصفه. قرأت قصّة بالصحيفة عن طفل تمّ عزله في مكان يعلمه الله. لا شيء يصفه. رائحة بكر. شيء كالرائحة، لا يمكن تتبّعه. هو هكذا وكادت أن تقول شيئاً على هذا النحو يُسلّيه لكنها أهملته تواً. كدارسٍ، ربما، من عصر وسيط يحاول تصنيف الروائح المعروفة فيعثر على شيء لا يوافق منظومته فيطلق عليه «صويا»، كلاحقة تنخرط بسهولة في مصطلحٍ لاتينيّ سامق، لكنه لم يكن؛ وجلست تفكّر في شيء، لم تتيقّن ما هو، بملعقة تبعد بوصة عن فمها.

قال: «ماذا؟»

«لم أقل شيئاً».

نهضت لتحضر شيئاً. نظرت في الإبريق وأدركت أنه غيره. عرفت أنه سيهلّ على بالها فهو يأتي دائماً ولا يأتي. أرادت عسلاً لشايها رغم أن الماء لم يغل بعد. لديها استعداد فائق، أو جنون، أو مِقداح نار، كما يقول راي دائماً، أو كما قال مرة، وكانت تحمل صوتاً برأسها يخصّها أشبه بحوار بين اثنين أو مع نفسها حين ذهبت للخزانة فأخذت العسل وأكياس الشاي. كان صوتاً دافقاً من قصّة بالصحيفة.

«ألن تخبرني شيئاً؟»

قالَ: «ماذا؟»

وضعت يداً على كتفه وتحركت للأمام نحو جانبها من المائدة. جفلت الطيور عن ملقم الطعام بأجنحة دوّامة على شكل b كلها ثم r، كان يتبع الحرف b سلسلة من r هزّاز. لكن لا يشبهه مطلقاً. لم يكن شبيهاً بأي شيء.

«قلتَ شيئاً. لا أعرف. المنزل».

«غير مهمّ. انسَي».

«لا أريد نسيانه».

«غير مهمّ. فلأقله بأسلوب آخر. فهو مملّ».

«قله بأيّ شكل».

«الوقت مبكر جداً. مجهد. مملّ».

قالت: «أنت تجلس هناك تتكلم. أخبرني».

أخذت قضمة من الحبوب وهي تقرأ الصحيفة.

«مجهد. مثل ماذا. مثل دفع جلمود صخر».

«أنتَ تجلس هناك تتكلم».

قال: «هنا».

«قلتَ المنزل. لا شيء عن المنزل مملّ. أنا أحبّ المنزل».

قال: «يعجبكِ كلّ شيء. تحبين كلّ شيء. أنت بيتي السعيد. هنا».

سلّمها ما ظنّ أنه خبزه المحمّص فمضغته مخلوطاً بالحبوب والتوت. عرفت فجأةً ما قصد إخبارها إياه. سمعت الغربان بأعداد كبيرة الآن، بصوتٍ أجشّ في الشجر، ربما تهاجم صقراً.

قالت: «فقط أخبرني. لن يأخذ أكثر من ثانية»، وهي تعرف بالتحديد ما يعنيه.

رأته يحرّك يده إلى جيب صدره ثم يتوقّف ويُخفضها للفنجان. كانت قهوته، فنجانه وسيجارته. بدت الحادثة الموصوفة بالصحيفة ناهضةً من أسطر الحبر المطبوع فجمّعتها فيها. أنتَ تفصل بين أقسام صحيفة الصنداي.

«فقط أخبرني. فأنا أعرف بشكل عام».

قال: «ماذا؟ إنكِ تصرّين على سحب هذا مني. لحسن الحظ لا نتناول الإفطار معاً في العادة. لأن صباحاتي».

«أعرف بشكل عام. فقط أخبرني».

كان ينظر بالصحيفة.

«تعرفين. ولا ضرورة أن أخبركِ».

كان يقرأ، مستعداً لأخذ سجائره.

قالت: «الصوت».

تطلّع فيها. نظر. ثم منحها ابتسامة كبيرة، بأسنان ذهبية في وجه زيتونيّ داكن كبير. لم تر الابتسامة المُكبّرة، لوهلة، كان راي بازغاً، عيناه صافيتان مشعّتان، ترتسم خطوط عميقة حول فمه.

«أصوات بالجدران. نعم. قرأتِ ما أعنيه».

قالت: «كان صوتاً واحداً. كان صوتاً واحداً. ولم يكن في الجدران».

«صوت واحد. طيب. لم أسمعه مؤخراً. أردتُ أن أقول. راح. انتهى. انتهت المحادثة».

«صحيح. أظنّني سمعته البارحة».

«ثم لم يذهب صداه. طيب. يسعدني هذا منك».

قالت: «منزل قديم. به أصوات دائماً. وهذا مختلف عن تلك الحيوانات الفارّة اللعينة التي نسمعها ليلاً. أو أن المنزل يترسّب. لا أعرف»، لا تريد أن تهتمّ. «كأن شيئاً هناك».

تقرأ الصحيفة، وصوت يدبّ.

قال: «طيب. أنا سعيد. تحتاجين لرفقة».

أنتِ تفصلين أقسام الصنداي وهناك سطور مطبوعة معينة دون نهاية فيها ناس يعيشون مع الكلمات والورق الغريب المضمّن فيه والحبر المتسرّب بالمنزل من أسبوع وحينما تنظرين في صفحة وتميّزين سطراً عن آخر يبدأ احتشادكِ فيه فنصف العالم معذّبون، يتحدّثون لغةً أخرى، وأنتِ تتحدّثين معهم أكثر أو أقلّ دون رابطٍ لتدركي ما تفعلين ثم

تتوقفين، ترين حالياً شيئاً أمامكِ، كنصف كوب عصير في يد زوجكِ.

أخذت قضمة حبوب ونسيت تذوّقه. فقدت الطعم بين الوقت الذي وضعت فيه الطعام بفمها وبين ثانية الندم على ابتلاعها إياه.

أنزل كوب العصير. أخرج العلبة من قميصه وأشعل سيجارة، السيجارة التي يدخّنها مع قهوته منذ بلوغه الثانية عشرة، كما أخبرها، وجعل العود يشتعل قليلاً قبل أن يهزّه بحركة بطيئة مولعة بالتأمّل ثم يضعه على حرف صحنه. كانت تتقبّل رائحة التبغ. فهي جزء من خبرتها عن جسمه. عطر الرجل، راسب دخان وعادة لا تنقطع، بُعد ليليّ، تفرزه من حِجر الشَّعر الرماديّ الملتفّ بصدره وتتذوّقه من فمه. حيث يكون بالعتمة، سجائر ونوم مغمغم ومائة شيء آخر قابل وغير قابل للتسمية.

لكنها لم تكن منه، تلك الشَعرة التي علِقَت بفمها. يجب على داخل الحمّام غسل يديه قبل مغادرته. كان خبزه المحمّص لكنها أكلت نصفه تقريباً. وكانت قهوته وفنجانه. حين تلمس فنجانه يتطلّع إليكَ من جانب، تحديق بعين ملاكم يلمس قفازات. لكنها عرفت أنها تخترع هذا فهو لا يأبه لما تفعل بفنجانه، يا للّعنة. يستخدم فناجين كثيرة. الهاتف يخصّه. الطيور تخصّها والعصافير التي تنقر بذور عبّاد الشمس. والشَعرة لشخصٍ آخر.

قال شيئاً عن سيارته، مسافة الزمن، بإيماء. يحب التواصل، يمدّ يده ليرشد بملاحظة، فيُبرز إصبعين.

«ظننتُ طيلة أمس أنه الجمعة».

قال: «ماذا؟»

أو قد تصبح أنت شخصاً آخر، واحداً من ناس القصة، تؤدّي

حواراً من اختراعكَ. تصبح إنساناً أحياناً، يعيش بين أسطرٍ، تنسخ طبعةً أخرى من القصّة.

كانت تفكّر وتقرأ. تتلمّس الطريق إلى علبة الصويا فترتطم يدها بحاوية العصير. تطلّعت ففهمت أنه لا يقرأ الصحيفة. يتطلّع فيها لكن لا يقرأها، وفهمت بشكل مستعاد أنه كان يتطلّع فيها طيلة الوقت بينما لا يستوعب الكلمات على الصفحة.

ظلت الحاوية قائمة. صبّت قليلاً من الصويا بالوعاء، ليصبح قواماً ثخيناً بحياة أطول.

«ظننتُ طيلة أمس أنه الجمعة».

قال: «صحيح؟»

فتذكّرت أن تبتسم.

قال: «وما أهمية ذلك؟»

وضعت يداً على كتفه ثم حركتها لأعلى تقريباً إلى قفاه فشَعره، تمسّده، لكن لا يتمسّد.

«أقول فحسب. كيف يبدو الخميس كالجمعة؟ فالمدينة بعيدة عنا. نحن خارج التقويم. الجمعة بلا هوية هنا. من يريد مزيداً من القهوة؟»

ذهبت لتصبّ ماءً لشايها ووقفت عند الموقد، تنتظره يقول نعم أو لا للقهوة. حين بدأت العودة رأت زرياباً[1] أزرق يجثم فوق ملقم الطعام. وقفت كالموتى وحبست أنفاسها. جثم كبيراً لامعاً يبدو ملكياً أكثر من الطيور الأخرى المنشغلة بالطعام وكادت أن تصدّق أنها لم تر زرياباً من قبل. جثم هائل الحجم، يتطلّع فيها، يرى ما يراه، فأرادت

(1) الزرياب: طائر شبيه بالغراب (م).

أن تُحيط راي علماً بالنظر إليه.

تراقبه، مخطّط بالأسود عبر جناحيه وذيله، فظنّت أنها تعرف الآن كيف تنظر نوعياً. لم تر شيئاً بهذا الوضوح من قبل وهو أمر غير بسيط فالزرياب مطبوع حيث كان، قريب حتى لتلحظ تفاصيل عُرفه ولونه. هناك أيضاً صدمة ظهوره النظيف بين الطيور البنيّة الأصغر، أزرقه المعدنيّ وأزرقه الأبكم وشريط الرقبة الداكن العريض. لكن لو نظر راي لأعلى، لطار الطائر.

حاولت أن تعمل على تفاصيل الطائر نفسه، لصّ الأعشاش والمحاكي الماهر، في اهتمام عينيه الثابت، نوع من رعشة فضوليّة تحسّ بها قليلاً كالتحدّي.

حين تتطلّع الطيور في المنازل، فماذا ترى من عوالم مستحيلة. فكّروا. يا له من فرز لسطح معلوم وأمر معهود. ودّت تصديق أن الطائر يراها، امرأة بفنجان شاي في يدها، ولا يهمّ تعاقب الليل والنهار، شبح مكان ينطلق من الزمان. نظرت وهي تتنفّس بحرص. تنتبه لصفاء اللحظة لكن تعلم أن نهايتها قريبة. تحسّ بها في الزرياب الأزرق. أو ربما لا. فهي تحدُث بذاتها ولذلك لم تعد تستطيع النظر. قد يعني هذا أن ترى ولو كنت شبه أعمى طيلة عمركَ، قالت شيئاً لراي، فرفع رأسه طفيفاً، يطارد الزرياب غير مبال بالعصافير الهامدة.

«رأيت هذا؟»

بنصف دورةٍ يردّ.

«ألا نراها طول الوقت؟»

«لا ليس طول الوقت. ولا بهذا القرب».

«ولا بهذا القرب. طيب».

«يتطلّع إليّ».

«يتطلّع إليكِ».

تقف بمكانها، بُعيد كتفه الأيسر. حين انتقلت لكرسيّها طارت العصافير.

«كان يراقبني».

«أهذا ما يميّز نهاركِ؟»

«يميّز نهاري. أسبوعي. وماذا أيضاً؟»

شربت شايها وهي تقرأ. كلّ ما تقرأه تقريباً يُحيلها إلى حلم يقظة.

فتحت الراديو وتابعت بطيئاً على طول المؤشّر، تقرأ الصحيفة، تسعى لتفتّش عن حالة الطقس في الراديو.

انتهى من قهوته ودخّن.

جلست أمام وعاء الحبوب. نظرت أمام الوعاء لفضاء داخل رأسها كان أمامها أيضاً.

طوت قسماً من الصحيفة وقرأت سطراً أو اثنين وقرأت المزيد أو لم تقرأ، كانت ترشف الشاي وتسرح.

أذاع الراديو أخباراً عن انفجار صاروخيّ غامض، تحت الأرض، في مونتانا، ولم تسمع إن كان وضع قديماً أم لا.

كان يدخّن ويتطلّع يمينه من النافذة، حيث ينحدر مرج مهمل نحو طريق مُمهّد يؤدي إلى درب مُحصب.

تقرأ وتسرح. هنا وهناك.

لا عسل بالشاي. فقد خلّت مرطبان العسل مغلقاً جنب الموقد.

نظر حوله بحثاً عن طفّاية.

تقرأ حواراً مع طبيب، في قصّة إخبارية.

هناك طريق محصب طوله ميلان قبل بلوغ الطريق المعبّد المؤدّي إلى البلدة.

أخذت التينة من صحنه وجوّفتها بإصبع لتستخرج لحمها.

أذاع صوتٌ حالة الطقس لكن فاتها. فلم تعرف أنه حالة الطقس إلا بعد أن راح.

أراح رأسه للوراء ثم أداره ببطء من جنب لآخر ليخفّف توتّر رقبته.

مصّت إصبع يدها التي جوّفت التينة وفكّرت بأشياء كانا يحتاجانها من المحلات.

أغلق الراديو.

ترشف شايها وتقرأ. رأت نفسها قليلاً أو كثيراً وهي تكلّم طبيباً في دغلٍ داخل مكان، مع جوعى تحت غبار.

تحترق السيجارة كلياً في يده.

لقطت علبة الصويا فقرّبتها من وجهها لتشمّ ما بداخلها.

حين خرج من الحجرة، أدركت أن هناك ما تودّ إخباره به.

لا تفكّر أحياناً فيما تريد قوله له حتى يخرج من أيّ حجرة كانا بها. تفكّر تالياً. وإما تنادي عليه أو لا ويستجيب أو لا.

جلست هناك وانتهت من شايها وفكّرت فيما تفكر فيه، تبعات ذكرى وصور مموّجة وصديق تفتقده وكلّ هراء أرقط الظلّ في لحظة لا تنشطر بصباح عاديّ يمضي مجنوناً بشكل عادة بشرية لا تستطيع قطعها

فلاحظت آجاكس[1] الذي تحتاج إلى شرائه فالطيور وراءها، تخشخش بالإطار المعدنيّ لملقم الطعام.

غباء فعل هذا، أن تقرأ الصحيفة وتأكل.

رأته واقفاً بالمدخل.

«رأيتِ مفاتيحي؟»

قالت: «ماذا؟»

انتظر تسجيل السؤال.

قالت: «أيّ مفاتيح؟»

نظر إليها.

قالت: «أمسِ اشتريتُ مُليّناً. هذا ما قصدتُ إخباركَ إياه. مليّن للعضلات. أنبوب أخضر في أبيض على رفّ الحمّام الكبير بالدور العلويّ. بدون شحوم. مليّن للعضلات. ادعك به، يا حبيبي. أو اطلبني لأدعككَ أفضل، لأجل خاطركَ».

قال: «مفاتيحي كلها بحلقةٍ واحدة».

كادت أن تقول، أهذا ذكاء؟ لكن لم تقلها. فما الحاجة لهذا. وكم سيكون مؤسّياً قولها شيئاً كهذا، صباحاً أو في أيّ وقت، في يوم مشرقٍ باهر بعد عاصفة.

(1) أجاكس: بطل حرب طروادة الذي قتل نفسه. لكنه هنا ماركة طعام للطيور (م).

راي روبلز، 64، شاعر سينما لأماكن مستوحشة

أخرج راي روبلز فيلمين معروفين عالمياً بسبعينيات القرن العشرين، وقد وجِدَ قتيلاً صباح الأحد بشقة مانهاتن الخاصة بزوجته الأولى، مصمّمة الأزياء إيزابيل كوراليس.

وفقاً للشرطة المستدعاة لمكان الحادث، سبب الوفاة جرحٌ من طلقٍ ناريّ ذاتيّ.

روايات مستر روبلز عن حياته الأولى متضاربة لكن أكثر نسخها المستقلّة المقنعة تفيد بلوغه 64 عند وفاته.

ولد باسم أليخاندرو ألكيزار، في برشلونة. تخطيط السيرة بدوريّة «كاييه دو سينما»[1] يؤكّد أن والده، العامل بمصنع نسيج والملتحق بقوات مناهضة الفاشية، قُتل بأعنف قتال في شوارع تلك المدينة أثناء الحرب الأهلية. تورد المقالة دليلاً أن أليخاندرو، وهو غِرٌّ بعد، قد انضمّ إلى «أطفال الحرب» بإسبانيا الذين أرسلتهم عائلاتهم إلى الاتحاد السوفييتي حين أصبحت ديكتاتورية اليمين حقيقة معوّقة.

ليس من الواضح كم سنة قضّاها بالاتحاد السوفييتي أو إن عاد ثانيةً إلى أمه. ومعروف أنه عاش شبابه في باريس، يتصيّد النفاية

(1) كاييه دو سينما: كراسات السينما، دورية سينمائية فرنسية مشهورة (م).

كمشعوذ شريد، وقد لعب أدواراً قليلة في عدد من الأفلام، صنّف فيها لصّاً أو قوّاداً. ثم اتّخذ اسم راي روبلز، بعد شخصية هامشية لعبها في فيلم جريمة غامض.

قضى سنوات عدة في نيويورك يكتب الترجمة السينمائية لعدد هزيل من الأفلام الناطقة بالإسبانية أو الروسية ثم مضى غرباً، وجد عملاً كسائق نظاميّ في لوس أنجلس، حيث دامت علاقته الهامشية بالسينما، فظهر بعدها في نصف دستة أفلام. كانت بدايته على الجانب الآخر من الكاميرا بعد أن أصبح السائق الشخصيّ لبليونير صناعة الإسمنت في ليشتنشتاين، وهو مستثمر من النوع الثقيل لمشاريع السينما العالمية. طبقاً لروايته، كان مستر روبلز على علاقة بزوجة الرجل فأقنعها بترتيب وظيفة له كمخرج مساعد بفيلم رعاة بقر[1] كان مخططاً له الانطلاق في إسبانيا.

في مهرجان كان السينمائي، بعد عشر سنوات، صرّح مستر روبلز أمام جمهور متفهّم إن «جواب الحياة هو السينما».

أخرج ثمانية أفلام روائية على الإجمال. ثالثها «حياتي لكم»، وهو إنتاج مشترك فرنسي إيطالي عن امرأة ثرية خطفتها عصابة كورسيكية، وقد نال سعفة كان الذهبية. بعده «بولاريس»[2]، وهو فيلم جريمة أمريكي مثير ممتزج بتيار خفيّ من السوريالية الإسبانية. وقد طوّر الفيلم مذهباً من بعده امتدّ فترات في عدد من بيوت الفن بهذا البلد وخارجه.

كتب الناقد فيليب ستانسكي «كان عمله في أحسن أحواله يبسُط لغة السينما. فموضوعه ناس وسط مشاهد طبيعة غريبة. وجد ضالته

(1) اسباجيتي، بالأصل: أفلام رعاة البقر المنتجة في إيطاليا (م).
(2) بولاريس: نجم القطب (م).

الروحية في شِعر الأماكن المغايرة، حيث تصبح المواقف المتطرفة حتمية وتُرغم الشخصيات على لحظات مصيرية».

فشلت أفلامه التالية تجارياً وأنكرها النقاد غالباً. يُعزي أصدقاء مستر روبلز تدهوره إلى إدمان الكحول مع نوبات اكتئاب متقطّعة. في هذه الفترة تزوج ممثلة المسرح آنا لينجدون. انفصلا سريعاً بعد عناوين رهيبة بصحف الفضائح البريطانية ثم طُلّقا أخيراً.

عاش ما بقي مع زوجته الثالثة، لورين هارتكي، فنانة الجسد.

الفصل الثاني

يوم أبيض غائم ويرقَى الطريق السريع إلى سماء مرتشحة. ثمة أربع حارات مرور تودي إلى الشمال وأنت بالحارة الثالثة وسيارات أمامكِ وخلفكِ ومن الجانبين، رغم أنها لا كثيرة ولا قريبة. حين تصلين أعالي المنحدر، يحدث شيء فتبدأ السيارات الحركة وئيداً، بالدفع الذاتيّ على ما يبدو، فتهبط ناعمة على السطح المنبسط. كل شيء بطيء وغائم ومرتشح ويدور كله حول كلمة يبدو. السيارات وبينها سيارتكِ تبدو سيّالة بحركة مفكّكة، تعطي انطباعاً أو تستحضر مظهراً، وبالطريق السريع همهمة بيضاء.

هكذا المزاج. صوت وتدافع وضباب وراءك فتنسلّ إلى حياتكَ من جديد، تحسّين بثقلٍ مؤلم في صدركِ.

تفكّر في هذه الأيام كأيامها الأولى.

في الأيام الأولى كانت تعيد رصّ حجرة الخزين ورشّ المطهرات بأرضية الحمّام. حجرة الخزين بحجم كامل، حجرة عتيقة معتمة بعيدة عن المطبخ، ولا حاجة لإعادة التخزين. تنظّف وتملأ ملاقم الطيور، تشكّل النهار حول شيء أساس بتغضناته وانعطافاته كلها، منظومة تشريعات حاشدة. ترشّ الأرضية والصيني بمطهّرات لها عطر صنوبر، تصف معتادة على بخارها. مضى شهران على عقد الإيجار. استأجرا ستة أشهر وبقي الآن شهران. شخص واحد، شهران. تستخدم قنينة لها بوز بشكل مسدس.

تحسّ هنا كأنه البيت، وتتلاحق الأيام بعاداتهما الفاتنة القليلة، أيام كسابقتها، تعدو وتنتظم بانهماك متزامن، مفتّت، مرتبك أحياناً بأماكن، أيام تنتقل ببطء شديد مؤلم.

تنظر بالصفحات التي تعمل عليها مع راي، سيرته الشخصية الفارغة. النسخة المجلّدة راقدة هناك، عارية من حسّها بتذكاراته المحكيّة، أكاذيب وحيل منسوجة، حكايات تشكّلت بنوبات إحباط لم تتّضح لها دائماً. قلّبت يدها فيما ترك من ملابس بحمّام حجرة النوم. لا يُغريها ما يُخلفه الناس وراءهم بعد موتٍ فوضعت الملابس في صندوق المحتاجين.

نزلت للدور الأول فأحسّت به في حجرات الدور الثاني. كان معتاداً على جوس هذه الحجرات وهو يتكلم في شريط مسجلة صغيرة، الدخان بوجهه، يتلو أفكاراً عن مخطوط بالٍ لكاتب في مكان لا يذكر اسمه. هو الدخان الآن، هكذا كان راي، شيء بالهواء، بخر، ينساق في كلّ مكان عاجلاً أو آجلاً، غُفلاً من الشكل، بوجهٍ كان جزءاً من طيفه، خاصّ برجل يجوس.

صعدت السلالم، سمعت صوتاً يُحدثه من يصعد سلالم، ولمست عروق السنديان من عمود الدرابزين حين وصلت آخره.

الأمور عادية. أرادت أن تكون هنا والأمور عادية. كانا طيلة زواجهما، طيلة الوقت الذي عاشاه معاً، يعيشان هنا.

أحسّت جسمها مختلفاً عنها بصورة لم تفهمها. حازماً، مشدوداً، لا تعرف بالضبط. غريب طفيفاً وغير أليف. مختلف، أنحف، لا تهتم.

هناك علبة فتات خبز بأحد أرفف حجرة الخزين. تعرف أنها رأت ورقاً شمعياً بمكان في صندوق أزرق مع لون آخر. أضحت الأشياء

مهمة الآن. وجبات، فروض، مهام.

سارت بطيئاً بين الحجرات. تحسّ به خلفها حين تخلع ملابسها، تقف عارية القدمين على أرضية باردة، تخلع سترة رثّة، وتدور نصفياً إلى الفراش.

بأيامها الأولى خرجت مرّة من السيارة شبه منهارة. لا الانهيار الخطير من كلّ مهمة معروفة بل غرق عاجز محدود لأدنى حدّ، نوع من نسيان التحمّل.

فكّرت أن تشوي لحماً، واعية بنفسها فحسب، ترى نفسها أكثر أو أقلّ من ركن الحجرة أو تقف بدقّة حيث كانت وتدري من هي فترى أنها تتأرجح قليلاً في هواء المكان، تظنّ تواً أنه الغد.

ودّت لو تختفي بدخان راي، تموت، تتمثّله، فتمزّق الورق الشمعيّ بحافة صندوقه المسنّن وتتناول علبة فتات الخبز.

حين رنّ الهاتف لم تتطلّع فيه كما يفعلون بالسينما. فلا يتطلّع الناس فعلاً في الهواتف الرنانة.

انفصل الورق الشمعيّ من لفافته بسياق صوتيّ متتابع، يكرّ بطول حافة الصندوق المثلومة، فتظنّ أنها تسمعه بطول عمودها الفقريّ.

تفكر دائماً في الغد. تخطط للأيام مسبقاً. تجلس بالحجرة المكسوّة. تقف في البانيو وترشّ عالياً على جدران القرميد حتى فسد بخر الصنوبر من الحمض وبدأت تغمرها الرائحة الطيّارة. فصعب عليها كفّ ضغط الزناد.

حرقت يدها من المقلاة، فذهبت مباشرة للثلاجة ولم يكن فيها ثلج. لم تكن قد ملأت مخارم الثلج.

يلقط الناس الهواتف الرنانة أو لا. تنصت إليها ترنّ. دوّى رنينها

عبر المنزل، عدّة الهاتف كلها تجلجل بحاملها.

بدا غريباً تماماً وفجأة أن مؤسسات كبرى تنتج فتات الخبز بكميات ضخمة وتغلّفه لبيعه في أماكن بالعالم وهي تنظر في علبة فتات الخبز للمرة الأولى حقاً، رأته حقيقة وفهمت ما فيه، وكان فتات خبز.

تجلس بالحجرة المكسوّة تحاول القراءة. بُنيت في البداية كمدفأة. صُممت حجرة طامحة لمشروب ومدفأة، حجرة فاشلة، مؤثّثة بحمق، وكانت تشرب شاياً وتقرأ كتاباً. لكنها تتّخذ طريقها عبر الصفحات محدّقة دون تمييز في الأشياء المثبّتة بالمكان.

كانت بأيامها الأولى تأكل الرخويات من أيّ جحيم وتقضي ساعات متلاحقة وهي تعدو إلى الحمّام. لكنها تستردّ جسمها على الأقلّ. فكّرت، لا شيء كسمكة كريب[1] هائجة توحّد بين جسمها وعقلها.

تصعد السلالم، تسمع نفسها نوعاً ما في أطراف المنزل الأخرى.

تخلع السترة الرثّة. ترفع ذراعها من السترة فترتطم يدها خفيفاً بشيء فوقها، لفت انتباهها رغم أنه قد حدث قبلاً، فتذكر اللمبة المعلّقة، رجفة ظلّ معدنيّ، لمبة وضُعها خطأ كلياً بالحجرة، تدور نحو الفراش لتنظر، نصف نظرة، لم تنظر بتوقّع لكن بشيء آخر. معنى باهت لم تستطع قراءته.

هناك الكثير لتفهمه ويبقى شيء واحد أخيراً.

---

(1) الكريب: سمك نهري صغير (م).

رأت في البلدة امرأة بيضاء الشَعر، يابانية، وحدها على درب حجريّ أمام منزلها. أمسكت خرطوم الجنينة وهي تقف معدومة الوزن تحت سماوات واطئة، فاترة مثل لفّة هدية، ترشّ حوافّ نبات الفلوكس القرمزيّ، رشّة ناعمة مائلة من فم الخرطوم.

بدا ما تراه غير يقينيّ. لا غير يقينيّ بل متغيّر دوماً، مغمور بالتحولات، كأنه شيء آخر أيضاً، لكن ماذا، وماذا.

بدأت تلقط الهاتف. تستخدم صوتاً ناعماً في البداية، ليس صوتها بالضبط، صوت أُخرى منتبه متعطّف، يقول أهلاً، مَن، نعم. كلمة مخادعة تعني أنها هنا وكانت الاتصالات من نيويورك، حيث تعيش، ومن أصحاب وزملاء بمدن أخرى. يتّصلون من مدنهم ليخبروها أنهم لا يفهمون لمَ عادت هنا. فهذا آخر مكان ينبغي أن تكون فيه، وحيدة في منزل كبير على ساحل فارغ، وتمشي بين الحجرات وتصعد السلالم وتخطّط لأيام قادمة فهناك المزيد لتفعله بزمان أقلّ ريثما يعتم النور مهدّداً. تنظر وكان ظلام، غير مُتوقّع دائماً.

تستيقظ باكراً كلّ صباح وهذا أسوأ وقت، أول لحظة قاتلة من الرقاد بالفراش حين تذكر شيئاً وتعرف من دفق أنفاسكَ ما هو.

يتّصلون خمس مرات أو ستاً يومياً ثم أقلّ قليلاً وكانت تفكّر في المرأة اليابانية، شيء جميل وصعب، إن كانت يابانية أصلاً، ترشّ جنينتها وتبين السماء عن مطر.

ركبت معديّة الصفيح إلى ليتل مون، حيث لا شيء تفعله غير السير على ممر طينيّ إلى طرف الجزيرة الآخر أمام منازل تضربها الريح وكنيسة ببرج مفقود، تسير أربعين دقيقة لمركز الحرف اليدوية المهجور، كان للتنجيد وربما حفر الخشب والخزف بأنواعه، ثم تعود

رشيقةً من جديد. تبحر المعديّة بمواعيد وهذا سبب كاف للقيام بالرحلة بين الحين والآخر.

خطّتها هي أن تنظّم الوقت لتعيش ثانيةً.

بعد أيامها الأولى بدأت تؤدّي تمرينات تنفّس. تستأنف عملاً بدنياً، حِميتها للمطّ كالقطة وثَني الجسم بصورة منهجية. تقوم بليّ العمود الفقريّ، تتحرك أرضاً على أربعتها، فتحسّ أورطاها تلتفّ لدرجة جيشان الدمّ. توقف رأسها وتُدير رقبتها. تُخرج لسانها وتلهث بسياق زمنيّ صارم، وقت داخليّ، دقّة عرفتها من عظامها حين تتحلحل عن فقراتها التي تطقطق أسفل ظهرها.

لكن العالم ضائعٌ داخلها.

في الليل تصبح السماء أقرب، تنبسط بدخان نجميّ وطوفان أشعة، بيد أنها لم ترها كما اعتادت انفساحاً للروح، سؤالاً حَلْقياً أبكم، شيئاً يعيش خارج اللغة بأقدم جزء منها.

توقّفت تنصت إلى حالة الطقس. تبيّنت الجوّ كما هو، مطر بارد وأيام عاصفة وجلاميد صخر محدّبة ضخمة بحقول مائلة، كرموز عشيرة، نابضة بضوء عاصفة وحكاية وزمن. شقّت خشباً للمدفأة. قضت ساعات مع شاشة الكمبيوتر تنظر في خطّ فيديو مباشر على حافة طريق مزدوج بمدينة في فنلندا. منتصف الليل في كوتكا، فنلندا، وهي تشاهد الشاشة. مسألة شيقة لأنها تحدث الآن، ريثما تجلس هنا، ولأنها تحدث أربعاً وعشرين ساعة يومياً، دون تمييز، تدخل سيارات وتغادر كوتكا، أو يفرُغ الطريق بأوقات ميتة. الأوقات الميتة أفضل.

جلست تنظر في الشاشة. مذعنة حقيقية، تقاوم حالة الفراغ المنقضي. تزدهر على هذه الحالة. الثالثة صباحاً في كوتكا وهي ترقب

سيارة تمضي. لا يهمّ من فيها. كانت كوتكا حقيقة بسيطة. مجرّد إحساس بنظام، مكان مشمول بإطار معاند، كما هو وكما تشهده، مع قراءة زمن محليّ بعرض رقميّ في ركن الشاشة. كوتكا عالم آخر لكنها تراه على حقيقته، بساعاته، دقائقه وثوانيه.

تصوّرت شخصاً يستمني هناك، تبدو سيارة على الطريق إلى كوتكا بمنتصف الليل. وأثارت الفكرة فيها الضحك. شقّت خشباً للمدفأة. تتهيأ للزمن يومياً بكاميرات الإنترنت في كوتكا. لا تعرف معنى هذا الخطّ لكنه يلفتها كفعل شعريّ رائج. الأوقات الميتة أفضل. يفرغ عقلها فتحسّ بصمت عميق في أماكن أخرى، لغز الرؤية عبر العالم بمكان مُعرّى من كلّ شيء عدا طريق يقترب ويتراجع، حقيقتان تصيران معاً، وتتغيّر الأرقام بالعرض الرقميّ في سرعة جوفاء غريبة، تتقدّم الثواني نحو الدقائق، وتصعد الدقائق نحو الساعة، وهي تجلس وتراقب، تنتظر السيارة حتى تتلاشى على الطريق.

اتّصلت صديقتها ماريلا، وهي كاتبة من نيويورك.

«أنتِ بخير؟»

«وماذا أفعل؟»

«لا أعرف. لكن هل أنت مستوحشة؟»

«هناك كلمة أخرى. فالجميع مستوحشون. شيء آخر».

«لكن ألا تعتقدين. لا أعرف. هذا أسهل».

«هذا حوار ينبغي أن تجريه مع شخص آخر. لا أعرف هويّة هذه الحوارات».

«إن لم تعزلي نفسكِ. تحتاجين للناس من حولكِ وأشياء أليفة. لا نفع أن يستوحش المرء. أعرف شعوركِ تجاهه. وكم هو مدمّر. يا الله.

لكن لا يجب أن تنطوي على نفسك. أعرف أيضاً أنك عنيدة. صاحبة إرادة قوية بطريقتك المتسلّلة. عليك توجيه نفسكِ لتفادي هذه الحالة، لا الغرق فيها. لا تنطوي».

«أخبريني عما تفعلين».

قالت: ماريلا «أطرّي وجهي. أتطلّع من النافذة. أتكلّم معكِ».

«ماذا تأكلين؟»

«أصابع جزر».

«ليس لها أن تُطرّي وجهكِ».

«أعرف. تجوّع جسمي. يعرضون بعض أعماله الأولى في منتدى الفيلم. لم تعرفيه فترة طويلة. هذه إضافة».

سمعت الصوت في الصباح. هو نفسه بخصائصه التي لاحظتها من قبل، من ثلاثة أشهر، حين صعدت للدور العلويّ مع راي ليتحقّق. قال إنه سنجاب أو راكون[1] مُحتجَز في مخبأ. ظنّت أنه تسلّل محسوب. بقياس نوعيّ محدّد. لم تحسبه صوت حيوان. يحمل تقريباً أثراً حميماً، كأن شيئاً هنا يتنفّس الهواء الذي نتنفّسه ويتحرك كما نتحرك. صوت بهذه الخاصيّة، لجسم يظلّل المكان، لكن لم يرياه حين تطلّعا.

سمعته بالمطبخ هذه المرّة. حملت شايها للدور العلويّ. الحجرات بآخر صالة الدور الثاني. الدور الثالث معتم، مصابيح بُنيّة وأثاث معظمه منزوع. بسطة سلالم إلى العليّة. تطلّعت في سكون، ورأسها يدور حول محور، يبرز أعلى جسمها من فتحة العليّة، كانت

(1) الراكون: حيوان ثدييّ من لواحم شمال أمريكا (م).

فسيحة نوعاً وتُستخدَم للخزين. برد شايها وهي تقف على أرض العليّة. فتّشت في ملابس قديمة مرقّدة في صناديق كرتون وتطلّعت بمستندات أصبحت هشّة في مطويّات جلدية. هناك بومة محشوّة وعلبة ألوان مائية دون غطاء، معوَجّة كثيراً. رأت ورقة شجرة تحوّم خارج النافذة. ورقة كهرمانيّة صغيرة تحوّم بالهواء تحت فرع شجرة ممدّد على السطح. لا علامة على أن الورقة كانت معلّقة بشبكة يرقة، أو جديلة من مادة بناء عشّ طائر. مجرّد ورقة تحوّم وسط الهواء.

وجدته اليوم التالي بحجرة نوم صغيرة كانت بعيدة عن الحجرة الكبيرة الفارغة بالطرف الآخر من الصالة في الدور الثالث. كان نحيفاً متناسق العظام فظنّته طفلاً في البداية، بشَعر رمليّ وقد نهض من نوم عميق، أو ربما بعد مرض.

جلس على طرف السرير بملابسه الداخلية. في الثواني الأولى ظنت أنه قَدَر. أحسّت بالزمان وقد عاد بمؤشّرات مبكّرة على أن شخصاً كان بالمنزل لحظة وصولها، يقيناً، ومدركاتها مصنّفة جميعاً وموثّقة.

الفصل الثالث

نظرت إليه.

«أخبرني. منذ كم وأنتَ هنا؟»

لم يرفع رأسه. هناك ما هو غريب فيه حتى أنها سمعت كلماته معلّقة بالحجرة، متوقّعة ومبتذلَة. لم تحسّ بأدنى خوف. كان مثل لقيط، ضائع ووجدوه. وكما خمّنت، فهي الواجدة.

قالت: «كنت هنا»، وتتكلّم بوضوح، سكتة بين الكلمتين.

نظر إليها فبدا أكبر الآن، الفعل المستخفّ برفع الرأس، ميلان بسيط للذقن والعينين كان حاسماً بدقة بالنسبة لتحوّله. بدا أكبر، شاحباً من الرطوبة، بارقٌ خدّاه وجبينه.

قال شيئاً.

قالت: «ماذا؟»

ملابسه الداخلية شورت أبيض وقميص كبير عليه وهي تفحصه من أعلى لأسفل، منفتحة على كلّ ما فيه.

قال: «عاجز».

«إذن لمَ تتواجد هنا؟ وهل كنت هنا من زمان؟»

أسقط رأسه فبدا مفكّراً في هذه الأمور كمن يعمل على تفاصيل مشكلة معقّدة.

وقفا خارج المنزل قرب رأس الحقل المنحدر يراقبان قارباً كجرادة بحر مندفعاً على زَبَد الموج. أطعمته حساءً بايتاً بخبز قليل، خبز محمّص. ينبغي قَلبُ الخبز مرّتين ليتحمّص جيداً.

قالت: «ماذا ترى؟»، وهي تُومئ للقارب وخطّ السحاب الصاعد.

قال: «الشجر جزئياً».

«يتمايل. مترنّحاً مع الريح. إنه شجر بتولا. أبيض. يسمّونه البتولا الورقية».

«أبيض».

«أبيض. وما وراء الشجر».

«ما وراء الشجر».

قالت: «هناك».

تطلّع لحظة.

«مطر غزير».

قالت: «ستمطر. على وشك أن تمطر».

كان يرتدي سترة جلدية قصيرة وبنطلون عمال ويبدو تعساً هنا. حاولت ألاّ تضغط عليه ليدلي بمعلومة. وجدت المسافة شيقة، كالمضمون الأعرج لكلامه وتصرّفاته، المضمون الذي عرفته بنفسها، بعيداً عما يحدث له الآن. لا فاتراً أو غير مهتمّ، فكّرت، بل هي قدرته المحدودة على تقدير الورطات. لم تكن على يقين مما يعنيه له، أن يوجد بمنزل شخص آخر.

هبّت الريح الآن بشدّة أكبر فدارا مبتعدَين. سرّت عن نفسها

بفكرة أنه قدمَ من فضاء الإنترنت، رجل قد انبعث من شاشة الكمبيوتر عند موت الليل. من كوتكا، في فنلندا.

قالت: «لم تمطر. ستمطر».

كان يتحرك قلقاً بالفضاء، داخلاً أو خارجاً، كأن الهواء التواءات ومنحنيات. راقبته يمشي جانبياً إلى المنزل، يدلف هيّناً. ربما يخشى السباحة في الهواء. لم تكفّ عن مراقبته.

كان دائماً كأنه. يفعل هذا أو ذاك كأنه. وهي تحتاج إشارة من مكان آخر لتحدّد موضعه.

جلسا بالحجرة المكسوّة الكالحة تحت مستنسخات مراكب شراعية. الهاتف يرنّ. يتطلّع في قطع الخشب المتفحّمة وهي تنهار بالمدفأة، مشتعلة من الليلة الماضية، وكانت تراقبه. كتب الأرفف الواطئة قراءات صيفية غالباً مما تجده بالمنازل المؤجّرة، كتب تناسب المقام، برسوم أغلفة توضيحية باهتة من منازل أخرى بأصياف أخرى، أو تقاويم، أو أطالس، فالشمس تُبلي حوافّ أعالي الكتب الطويلة.

ذقنه غاطس، متراجع كثيراً، فيمنح وجهه نظرة ناقصة، وشَعره سلكيّ شائك، كتلٌ من القِنّب.

تركّز في تبيان هذه الملامح. تنظر إليه ثم تنظر ثانية. هناك شيء مراوغ بسيمائه، لحظة بعد لحظة، نحول بالمعنى الجسديّ.

همست: «كلّمني».

كان يجلس وساقاه متقاطعتان بحرج، رِجل بنطلون تركب على ربلة ساقه، فتراه قد أحكم الرباط بأعلى جوربه فلا يرتخي. أخذت تفكّر في شيء.

قال: «كلّميني! إنني أتكلم».

ظنّت أنها فهمت قصده. في نبرته عبث معين، لا نهاية من الجهد، يقترح ما لا يستطع توضيحه لها بسهولة مهما قال. حتى تميّزت إيماءاته بصراع ما. عرفت أنها ستتّصل بعيادات ومستشفيات، مصحات نفسية، لتسأل عن مريض مفقود.

يخبط المطر النوافذ بنقرات وزخّات صغيرة دون عدّ، ثم كانت بكلّ مكان، تفرقع على سطح الحجرة المعرّض للشمس وتملأ المزاريب، فجلسا ينصتان.

قالت: «ما اسمك؟»

نظر إليها.

قالت: «جئت هنا لأكون مع نفسي. شيء يهمّني. أنوي الانتظار. سأمنحك فرصة لتخبرني مَن أنتَ. لا أريد أحداً بمنزلي. سأمنحك فرصة»، قالت: «لكن لن أنتظر بلا نهاية».

لم ترغب أن يبدو هذا ترحيباً رسمياً لكنه كان، ربما. ستتّصل بأقرب مفوّضية للمشرّدين، لن تكون قريبة على أي حال، وربما بكنيسة البلدة أو كنيسة البرج المفقود في ليتل مون ويجب عليها استدعاء الشرطة، أخيراً، إن لم يُجد نفعاً.

«إنني هنا لأجل راي، زوجي، الذي مات، لا أعرف لمَ أخبرك هذا فهو أمر غير لازم طبعاً. أريد الحياة هنا وحدي زمناً. أخبرني إن فهمت».

حرّك يده بإيماءة بدا أنها تعني كُفّي عن المزيد. طبعاً فهم. وربما لم.

انقلبت العاصفة فجلسا ينصتان. مطر شامل ينصتان إليه. قد تتّصل بوكيل الضيعة لتقديم شكوى عن شخص بالمكان. شيء آخر تستطيع فعله.

حدث هذا من منتصف الصبح لكنها تحسّ به هنا من أسبوع. جلسا ينظران إلى اشتعال الليلة الماضية.

وأدركت مَن هو، جعلها الرجل تفكّر فيه.

كان مدرس علوم بمدرسة ثانوية، شبه متلعثم، يبدو شعره باهتاً تحت نور ملتبس وأصلع بأيام أكثر إشراقاً ويخفي لفق حذائه مرة ويتحدّث بتأتآت غير قياسية فيرتبك الطلبة نيابة عنه، القلائل الألطف، أو المتبرّمون كثيراً، المتبرّمون، الآخرون جميعاً.

سمّت الزائر بلقبه. مستر توتل. ظنّته يسهّل رؤيته.

همست: «أخبرني شيئاً».

فكّ تقاطع ساقيه وجلس بيدٍ على كلّ ركبة، دمية في كرسيّ مُسندٍ أحمر، دار رأسه نحوها.

قال: «أعرف ثمنه. أعرف ثمن هذا المنزل. المنعزل جنب البحر».

لم يبد سعيداً بالضبط بل راضياً نوعاً، راضياً بصورة آلية أوصلته لعنقود الكلام الأخير. وكان ذلك حقاً، قادماً من مستر توتل، رمزاً سمعته من أعماق صداه. أربع كلمات فقط. لكنه جعلها داخل محيط مضاد، بمداخل ومخارج متزامنة. المنزل، كوكب البحر خارجه، فبدت كلمة منعزل ذات دلالة عليها وعلى المنزل وبدت كلمة بحر داعمة لفكرة العزلة لكنها تقترح انعتاقاً فعلياً أيضاً، وسيلة هرب من حدود كتاب الذات المكسوّ.

عرفت حماقة التفحّص عن قرب. فهي تخترع أشياء. لكنه التأثير الذي أحدثه، ظلّ وئيد في جُملة، يظهر كلمة بنتوءاتها وأسطحها، كلمات كأقمار بأطوار معينة.

قالت: «يعجبني المنزل. نعم، أودّ البقاء هنا. لكنه مجرّد إيجار. أنا مستأجرة. سأبتعد عن هنا في بحر ستة أسابيع أو سبعة. ربما أقلّ. منزل استأجرناه. خمسة أسابيع أو ستة. أقلّ»، قالت.

لا تراقبه الآن. تتطلّع في ظَهرَي يديها، أصابعها مفرودة، تتطلّع وتفكر، تسترجع لحظاتها مع راي، لا اللحظات بالضبط بل الأوقات، أو اللحظات بجريانها في وقت مركّب، حسيّة الرؤية والملمس، ثم لفّت يداً على وفي الأخرى، تفتقده بجسمها وتحسّ بالرغبة والوحدة السحيقة فتحدّق بالنقاط التي تبدو فيها مفاصلها شاحبة الدم من ضغط قبضتها.

قال: «لكنكِ لم ترحلي».

تطلّعت فيه.

قالت: «سأرحل. بعد أسابيع. في الأوان. حين ينتهي العقد. أو أبكر. سأرحل».

قال: «لكنكِ لم».

كان للتحوّل من توتّر الماضي إلى الحاضر صوت شيء منهَك، عقبة أو عائق. عليه أن يمطّ نفسه لينزعه. وسمعت شيئاً بصوته. لم تعرف كنهه غير أنه جعلها تنهض إلى النافذة.

وقفت هناك تتطلّع في المطر. ظنّته أحد سكان البيوت المبعثرة عند حافة الغابة خارج البلدة، بيوت قريبة لكن شاردة، مع سيارات مُجمّعة وكلب غريب مضحك يلفّه وحل وأوراق شجر، يحاول خدش حكّة في بقعة، وهو الابن الكبير الذي كان هكذا دائماً، المارق، التابع أبداً، يعيش حقيقة بصندوق مستطيل مع والديه الطاعنين الفانيين، لا يستخدم اسم أيّ منهما، ويخرج أحياناً ليهيم عدة أيام

ماضياً حيث يمضي، متذمراً لكنه غير مؤذ، في العالم الفقّاعة.

ظنّت، ربما لا. ليس هذا ما سمعته بصوته. هناك شيء عند الحافة، لا يرتبط بمستويات دخل أو أزمنة فعل أو بما يشاهده والداه في التلفزيون.

دارت عن النافذة لترغمه أن يتكلّم قليلاً. بدا موافقاً على فكرة الكلام. تكلّم مرتبكاً عن أشياء بالحجرة، فتساءلت عما رآه، أو أخفق أن يراه، أو رآه بشكل مختلف لم تبدأ استحضار ملامحه.

تكلّم. بدأت تفهم بعد لحظة ما تسمعه. بعد مستويات عدّة من الإدراك. بعد تواريخ اجتماعية كاملة عن كيفية الإنصات لما يقوله الآخرون. هناك غرابة في صوته، أثر يتطوّر حتى وهو يتحدّث، استطاعت تتبّع مصدره.

كانت تراقبه. الرجل تعس الحظّ الذي التقته مصادفة من قبل، دون حسّ مرئيّ بما أحدث من تأثير.

ليس ذلك انتحال شخصية صريحاً فقد سمعت عناصر من صوتها، وصال سريع، أزيز خفيف من عمق الحلق، درجة نغمته، رنينه، وصعوبته بالبداية، أثيريّ تقريباً، يكشف أن صوتها قادم من شخص آخر، منه هو، وأزعجها ذلك بشدّة.

لم تتأكّد إن كان صوتها. ثم تأكّدت. لم يكن يتكلّم عندئذ عن الكراسي، اللمبات أو زخرفات السجادة. بدا متلبساً دورها في حوار مع آخر.

حاولت فهم ما تسمع.

أوما وهو يتحدث، يحرك يده تبعاً للكلمات، فبدأت تدرك أنها قالت هذه الأشياء إلى راي، هنا بهذا المنزل، أو أشياء شبيهة. مجرد

ملاحظات معتادة عن مكالمة من أصدقاء أرادوا الزيارة. تذكّرت، استرجعت بغموض أنها كانت تقف عند أسفل السلالم بينما هو بالدور الثاني، راي، يمشي ذاهباً آيباً بالصالة، يدوّن سيناريو.

تقف الآن جنب النافذة. بدأ الصوت يتردّد شاحباً لكن ظلّت يده تتحرك، توافق نبرته الواهنة.

تناولت معطفاً من الحامل وخرجت في المطر. طوت المعطف على ذراعها المثنيّ، تحمله فوقها، وسارت على الحشيش إلى الطريق المتّسخ، حيث تركن السيارة. كان بابها مفتوحاً فدخلت لتجلس هناك فلا ضرورة من غلق الباب بمكان منعزل. يغسل المطر حاجب الزجاج بمدّ وجزر متوافق. جلست هناك تلملم نفسها من الرعشة وصعب عليها أن تكفّ عن سماع نبرة ذلك الصوت. كانت نافذة خلفية نازلة قدر بوصة تجلب رائحة المروج الندية، شذا مطر ريفيّ، في الهواء تمتزج تأثيرات البحر والنسيم والذكرى جميعاً لكن ظلّت تسمع الصوت وترى إشارة اليد، تخصّ راي بدون شكّ، إصبعان مضمومان مرتجفان.

لم تعرف منذ متى وهي هناك. ربما من زمن طويل. يضرب المطر السطح والجوانب بشدّة. كم تعني مدّة زمن طويل؟ هذا، أو ذاك. دفعت الباب تفتحه أخيراً ثم سارت عائدة للمنزل، تمسك بالمعطف عالياً.

الفصل الرابع

هناك خمسة طيور عند الملقم وكلها متوجّهة للخارج، بعيداً عن الطعام وساكنة تماماً. تراقبها. لا تتطلّع الطيور أو تنصت كثيراً حين تحسّ بشيء، مجرّد أنها منتبهة وحساسة.

فكّرت، هذه الكلمات كلها خاطئة.

كان الملقم معلّقاً خارج الحجرة المشمسة وهي تقف بالحجرة البيضاء غالباً، جنب النافذة العريضة، تنتظر مستر توتل.

كانت تزوّد الملاقم حين عودتها. هذا هو المدى الأصليّ لمحيطها الدنيويّ، سعة الطبيعة التي تحدّد المنزل. لكن يبدو كأنها تطعم طيور الأرض، بذرة مختلفة لكل وعاء، وقد ترقد أحياناً بذرتان ليلاً نهاراً في ملقم، فتهلّ الطيور وتنقر، أو لا تنقر. والملاقم مختلفة أيضاً؛ أقفاص، اسطوانات حلقية، صحون معلقة، صوانٍ منصوبة، ولا تعرف، أن ما يبعد الطيور أحياناً، هو صقر، أو زرياب يقلّد صقراً، أو أن الطيور تقرأ رسالة مؤقّتة خارج الطيف المرئيّ.

حين دخل لم يتطلّع فيها بل ذهب نحو المائدة زجاجية السطح ذات الأرجل الملفوفة.

مسجّلة راي راقدة تومض بمنتصف المائدة.

جلست تبدأ الحديث، لوصف مظهره. وجهاً وشعراً وهلمّ جرا. يقظاً أم لا. مهندماً للغاية أو غير متأنق غالباً. ماذا أيضاً؟ ليلة جيدة أو

رديئة أو وسط. ليس لأنها تعرف أحوال لياليه. ليلة واحدة فحسب. لم تستطع النوم فوقفت لحظة عند بابه بعد منتصف الليل، تنصت إلى شهيق أنفيّ خشن فتجد نفسها تتحرك على غير العادة. في نومه لم يعد مجهولاً أكثر من الآخرين. انظروا. جسم مغطّى ينبض واهناً. هذا ما تحسّ به، حين تنظر لجسم هادئ وغير حصين، لأيّ امرئ تقريباً، كمن ترقد جنب زوجها بعد قضاء الحبّ فتتنفّس حرارة أحلامه القاسية وتتساءل من هو، تتأمل ملياً الحقيقة التي لن تعرفها، فهي السرّ الذي يحميه النوم بأعماقه العصبية، بمراحله، بطياته ولفائفه.

تكلّمت هذا الصباح عن اسمه، أو حاولت. فعلا ذلك معاً، البدء والتوقّف. وكلّما تكلّما. تكلّما لحظة ثم غيّرا الموضوع وقد أغلق المسجّلة فأعادت فتحها، وربما كان له اسم، نعم، اسم، لكنه نسيه أو أضاعه ولم يسترده.

قالت: «أنا لورين».

قالتها عدداً من المرات، وهي تشير لنفسها، فقد ظنّت ذلك مُعيناً لكلّ منهما لو ناداها باسمها.

قالت: «لو كان لكَ اسم. افترض. أهناك أحد يعرفه؟ أين أمكَ؟ حين أقول «أمّ» أعني المرأة التي تلد طفلاً، الوالد، الوالد الأنثى، هل تعني لك شيئاً؟ أخبرني. ماذا؟»

كان يعرف اسم الكرسيّ والنافذة والحائط ولا يعرف المسجّلة، لكنه يعرف كيف يغلقها، وبدا جاهلاً أمه، أو أين أراضيها.

أخبرته: «لو عندك لغة أخرى تتكلّمها، فقُل بضع كلمات».

«أقول بضع كلمات».

«قُل بضع كلمات. لا يهم إن كنتُ أفهم».

«أقول بضع كلمات لمجرد أن أقول بضع كلمات».

«آه. كن معلّماً من صوفيّي الزنّ[1]، أيها المُخدّر قليلاً. كيف تعرف ما قلتُ لزوجي؟ أين كنتَ؟ هل كنتَ هنا، تنصت، في موضع؟ صوتي. يبدو مثله كلمة بكلمة. أخبرني كيف».

حين سكن الحوار، توقّفت المسجلة في أزيز. كانت تراقبه. تحاول الضغط عليه لكن لا تصل لمغزى فتغيّر الموضوع ثانية.

«ماذا تعني حين قلتَ أول أمس، حيَن أوشكت تقول ماذا؟ لن أذكر الكلمات بالضبط. حدث بالأمس. نهار ما قبل اليوم. قلتَ سأظلّ هنا، أعتقد، حتى نهاية العقد. هل تذكر؟ حين يُفترَض بي الرحيل. قلتَ لا يَجمُل بي».

«قلتُ ما قلت».

«قلتَ هذا. أنكَ نوعاً».

«نوعاً. ماذا تعني نوعاً؟»

«صه. أنك نوعاً ولم تهتمّ بمسألة نهاية العقد. أو شيئاً آخر تماماً».

أغلق المسجلة. فتحتها، أغلقها. فكّرت، هو مجرّد فضول، أو لعب على غير هدى. أحسّت أنها تصدمه. لا، هي لم. لم تعرف بمَ أحسّت. حان وقت الاتصال بالمستشفيات ومؤسّسات أخرى. ذلك ما أحسّت به. تجاوز الوقت وأخطأت بعدم الاستفسار، ألاّ تأخذه لشخص بموقع سلطة، طبيب أو كاهن، راهبة تدير جمعية خيرية، شَفوقة وقادرة، لكن عرفت أنها لن تفعل.

(1) الزنّ: فلسفة بوذية يابانية تنادي بإمكان التوصل إلى الحقيقة عن طريق التأمل (م).

قضت ساعة في مكتب مؤقّت بالدور الثاني، تنسخ تعليقات مختارة من الشريط الذي سجلته معه.

سمعت نفسها تقول: «أنا لورين»، كشخصية ملفوفة بالأسود في فيلم خيال علميّ.

خطر لها أخيراً. بدأت تفهم أنه سمع صوتها على شريط المسجلة. قبل أن تقحم شريطاً فارغاً، ضغط زرّ التشغيل وسمع كلامها مع راي، الذي كان بالدور الثاني والمسجّلة في يده، يتواصل مع أفكار السيناريو.

هكذا استنسخ صوتها.

ماذا عن إشارة اليد؟ رفضت إشارة اليد. كانت إشارة متزامنة، ظرفية، من اختراعها الشخصيّ جزئياً.

شعرت بتحسّن الآن.

أنهكت جسمها مع الأيام. هناك حالات دائماً تصل فيها لحدود قصوى سبق تجاوزها. قد تتحمّل نهاية غير محتملة حسب التنفّس أو الطاقة أو فترة الزمن أو قوة العزيمة ثم انحّلت لمدّ حدودها.

أخبرها راي مرّة، أنت تتصنّعين مجتمعك الديكتاتوريّ الصغير، حيث تصبحين الديكتاتور المطلق، والمضطَهَدين أيضاً، قالها، بإعجاب، كأن فناناً يخاطب آخر.

تعبها الجسمانيّ يجعل كلّ شيء شفافاً. كانت ترى وتفكّر بوضوح، ما يعني أن هناك القليل الذي يحتاج رؤية لا الكثير الذي يحتاج تفكيراً. لكن ربما كانت أعمق، تلك الوضعيات التي افترضتها فأقامت عليها فترات مطوّلة، مبالغات مذبذبة، أشكال ثعبانية وانحناءات زهريّة، امتدادات وَرِعة لاستراحة منهجيّة، حياة نحياها

صعبة الاختزال كتنفّس شفّاف. أولاً نتنفّس، ثم نزفر، ثم نلهث مما يجعلها مشدودة وعيناها فاغرتان، فتتوهّج الشرايين برقبتها، ساعات مستعجلة من التنفّس وعبثيّة حتى تصل النهاية الأخرى بنوع من النور النقيّ، تحسّ بكلّ ما هو حيّ.

بدأت وهي عارية في حجرة باردة. تفرد ساقيها على أرض مجرّدة، وتمدّد حوضها، بوضعية حسيّة وحسيّة هازئة معاً، وتكرّر حركتها البطيئة كلمحة يومية، تنظر للساعة في رسغكَ أو تدور لتنادي سيارة، تستظهر تصرّفات مقتبسة بإطارٍ مفاهيميّ آخر، عدداً من المرات ثم أبطأ الآن، مع فمكَ تفغره الدهشة وعيناك مغلقتان بإحكام من توتّر وَغيٍ عابر.

اتّصلت إيزابيل، زوجة راي الأولى.

«لم نكد نتكلّم بالجنازة. تحاشيتِني قليلاً، فتفهّمت، صدّقيني، فقد تتعاطفين. إنني أيضاً أتقبّل ما فعل فقد ظللت أعرفه. لكن عندكِ الأمر مختلف. كان سيئاً أننا لم نتكلّم. رأيت ذلك سيحدث بعد سنوات. كان شيئاً على وشك الحدوث. كلّ منا عرف هذا عنه. كان سيفعل هذا بعد سنوات. إنه شيء كان يحمله معه. طريقته في الهروب. لم يكن رجلاً يائساً. كانت الخطّة في باله. هي حيلته التي كان يعرف أنه يستطيع تنفيذها وقت الحاجة. حتى خلاّني أراه في الكرسيّ».

«لكن ألا تفهمين؟»

«من فضلك. مَن يفهم غيري؟ كان هو المستحيل. من وقت باريس كان صعباً. تزوّجنا أحد عشر عاماً تقريباً. قضّيت معه أشياء لم أبدأ حكيها لكِ. لا تظنّي أنني لا أتجنّبكِ. إنني أجنبكِ كلّ شيء. لم تكن هناك مسألة كيميائية في دماغ هذا الرجل. كان مَن كان. لا وقت عندكِ بصراحة لتكتشفي. سأخبرك شيئاً. كنا اثنين بحياة واحدة هي

حياته. لبثتُ معه حتى حطّم صحتي، ولا أزال أدفع الثمن. كان عليّ الرحيل في منتصف الليل. لمَ في رأيكِ؟ هدّد بقتلي. وفي هذه الحجرة حيث أقف، أرى المساحة الفارغة مكان الكرسيّ. ظلّ يوماً كاملاً هنا حتى أبعدوه عن بصري فأخذوه للفحص الطبيّ، فحص دمه وماذا أيضاً، لن أصف، آه، كدليل. فاشتريتُ كرسياً آخر. دون تردّد. فهناك مساحة فارغة. أراد طبعاً أن يجنّبك اللحظة الفعلية. لذلك جاء إلى نيويورك وجلس في كرسيّي».

«كان كرسيكِ. فهل كان مسدسكِ؟ مسدس مَن استخدم؟»

«أنتِ مجنونة، مسدسي؟ هذا شيء آخر لا تعرفيه. كان على الدوام يملك مسدساً. حيث يعيش معه مسدس. هنا مسدس أو هناك مسدس. لا أستطيع العدّ».

«لا. ألا تفهمين؟ لا أودّ سماع هذا».

«لكني أودّ قوله. أُصرّ على قوله. كان يكره نفسه. منذ كم عرفتُ الرجل ومنذ كم عرفتهِ أنتِ؟ لم أرحل. هل رحلتُ مرة؟ هل انفصلنا حقاً؟ عرفتهُ في منامي. وأعرف بالضبط كيفية عمل دماغه. صرّح لنفسه بشيئين. هذه امرأة سأعرفها للأبد. وقد لا تعنيها الفوضى».

ذهبَت تبحث عن مستر توتل. لا تعرف أين ذهب أو ماذا فعل حين غاب عن بصرها. جعلها تحسّ به في نومها أكثر مما فعل عند الطاولة، عيناه مورّمتان طفيفاً، أو كان ذلك في خيالها. صعب عليها أن تظنّ أنه بشريّ، ولو لحظياً، بأدنى درجة من التوقّع، مجرّد جسم جنب نافذة في نور مغبّش.

وقفَت بالصالة الأمامية ونادَت: «أين أنتَ؟»

جلسا في تلك الليلة بالحجرة المكسوّة تقرأ له من كتاب عن

الجسم البشريّ. فيه صور مكبّرة عن خلايا الدم آلاف المرات وفيه قسم لنصوص بيولوجية عن الولادة كانت تقرأها له، ببطء، وتُقحم تعليقات من عندها، تسأل أسئلة، وتشرب شاياً، وحين ظلّت تقرأ أربعين دقيقة، نصّاً عن الجنين وهو يطفو وسط سوائل الجسم، بطول نصف البوصة، أدركت فجأة أنه يكلّمها.

لكن ما سمعته كان صوت راي. بتمثّل تام، باللكنة والنبرات المسحوبة، باختلافات حميمة، وتُخلف الأحرف الصامتة مجرّد آلة للصوت، جهاز صوتيّ لا أكثر، أشياء عرفتها في صوت راي، وفي صوت راي فقط، فظلّ رأسها مثبتاً بالكتاب، عاجزاً عن النظر إليه.

حاولت التركيز بإنصات صارم. قالت لنفسها أن تنصت. بينما يدها لا تزال في الهواء، تقيس له الجنين، بإصبع إبهام وسبابة تقيس له الطول.

تابعت ما يقول، كلمة بكلمة، لكن ظلّت تبحث عن سياق. تفكّك الحديث وامتدّ. كان يتكلّم عن أنواع سجائر، «بليرز» و«جيتان»، كنت أسير ميلاً لأشتري علبة سجائر «كاميل»، سمعت عندئذ صوت راي، دويّ ضحكة راي بقعقعة أجراسها، صافية شاسعة، ولا ينتج هذا شريط مسجلة.

كان يتكلّم معها، لا مع كاتب سيناريو في روما أو لوس أنجلس. كان راي في دوره المصيريّ الفاتن، يتلو تاريخ إدمانه للنيكوتين، وسمعت اسمها عرَضاً، أول مرّة يستخدمه مستر توتل.

لم يكن هذا تواصلاً مع الموتى. كان راي حياً بمجرى كلام يحدّثها به، في هذه الحجرة، بعد وقت قصير من مجيئهما هنا. متأكّدة من هذا، تسترجع كيف صعدا للدور العلوي ثم سقطا في ليل إحساس متلاطم، نزعات جنس، اعتراف ونوم شحيح، وكان هذا اعترافاً

بإيمان كلٍ منهما بالآخر، لا إفضاء بكينونة ذنب بل بوح بهذا الإيمان، بوحه المفعم بالحاجة غالباً، ثم جنس نعسان ثانية، اثنان يتداخلان كلٌّ بالآخر، في يُسر ورشاقة كرشاش بحر، وحكى لها أنها تساعده على استشفاء روحه.

كان هذا كلّه مجرد لمعة بيضاء في مكان، ومض جليديّ لذكرى، وبعده الكلمات نفسها، كلمات راي، التي ينطقها ذلك الرجل بالكرسيّ القريب.

«أستعيد ملك نفسي بك. أفكر كأنني نفسي الآن، لا كالرجل الذي أصبحته. آكل وأنام كأنني نفسي، الرديئة، الرديئة فعلاً، لكن كأنني نفسي حينما أكون نفسي لا الرجل الآخر».

نظرت إليه، رأس كرتونيّ وملمح، دون ذقن، عود رنّان، لكنه عرف كيف يجعل زوجها يعيش بالهواء المندفع من رئتيه في طيات صوته. من هواء إلى أصوات، أصوات إلى كلمات، كلمات الرجل، متشكّلة بوثوق على شفتيه ولسانه.

همست «ماذا تفعل؟»

«أفعل. هذا آه ذاك. قولي بضع كلمات».

«هل قلتها أنتَ؟ انظر لي. هل كلّمت راي مرّة؟ كما نتكلّم الآن».

«نتكلّم الآن».

«آه. هل تقول آه؟ قل آه. متى عرفته؟»

«أعرفه حيث كان».

«أحياناً. أهذا ما تقول؟ هل وقفت خارج الحجرة وسمعتنا نتكلّم؟ حين أقول راي، هل تعرف مَن أعني؟ الكلام في حجرة. هو

وأنا».

خلّى جسمه يترنّح قليلاً، من جنب لجنب، بهزّة ميكانيكية، تيك توك، كأول لعبة اخترعوها متحرّكة.

لم تعرف كيف تفكّر في هذا. هناك شيء نيّئ الآن، جرح مفتوح. عزّاها إلى ما هو خارج خبرتها لكن بمركزيّة مستميتة، نوعاً، في الوقت نفسه.

نوعاً. ماذا تعني نوعاً؟

سألته أسئلة وتكلّم بصوته هو، الذي كان هشاً نحيلاً ومعوّقاً بتوترات وانعطافات، في تصريفات رتيبة، ووعت أنها كانت تصف ما يقول لشخص ثالث في بالها، ربما صديقتها ماريلا، الموضوعية، الواثقة، الناصحة، المعهود عنها الصراحة، كأنها تنصت بحنين لكلّ كلمة ينطقها.

شرعت تحمل المسجلة لكلّ مكان تذهب إليه. كانت صغيرة خفيفة وتدخل جيب صدرها. كانت تلبس قمصاناً فانلة بجيوب قابلة للطيّ. تلبس أحذية عازلة وتسير ساعات على حافة مماشي العشب المالح وبمنتصف طرق مهملة وهي تنصت إلى مستر توتل.

تتطلع في وجهها بمرآة الحمام وتحاول فهم السبب الذي تبدو فيه مختلفة عن وجهها نفسه بالدور السفليّ، على مرآة بطولها الكامل في الصالة الأمامية، رغم أن السبب لم يستعص على فهمها مطلقاً، كما فكّرت، فالوجوه تبدو مختلفة طول الوقت وفي كلّ مكان، اعتماداً على مئة تنويعة يومية، لكنها فكرت، من جديد، لماذا أبدو مختلفة؟

❑❑

لم تأخذه إلى البلدة فربما يعرفه شخص هناك ولأنه لم يترك المنزل باختياره، في حدود علمها، ولم تكن تودّ إرغامه على تجربة ما يخيفه، لكن ودّت أن تجنّبه غالباً رؤية الآخرين.

مع ذلك أخذته معها إلى مراكز تسوّق فسيحة، وسط البلد، بكثافة دخان سيارات ومرور مزدحم، وفعلت هذا كأنها تفعل شيئاً أغرب مما تحكم عليه بأنه شديد الغرابة حين تفعله، بدافع الحثّ، لتريح حاجة بإشارات طائشة غائمة وعديمة الجدوى، ربما لترى أشياء بعينيه، العالم بصورة هندسية، متشكّلاً ومكدّساً، وصفوف المنتجات الطويلة بينما المبضّعون منتشون بأحذية ناعمة وأيّ شيء آخر يلفت انتباهه حتى لتنسى كيف ترى.

لكن حين وصلا هناك تركته مطوّقاً بحزام مقعده ومغلقاً عليه في السيارة ريثما راحت لقسم الإلكترونيات والسوبر ماركت ومعرض الأحذية. ابتاعت له حذاء وجوارب. ابتاعت أشرطة فارغة لتسجيل الصوت، غير متوفّرة بالبلدة، ثم عادت إلى السيارة بأكياس البقالة في كرّار لامعٍ فوجدته جالساً في عجز مدهش.

ربما كانت تجارب الرجل نوعاً آخر من الحقيقة حيث يكون هنا وهناك، قبل وبعد، وحيث يمضي من أحد إلى آخر متعثّراً، بحالة انهيار، ناقص هويّة، لغة، طريقة للتمتّع بمذاق خبز محمّص مغلّف بالعسل شاهدته يأكله.

ظنّته يعيش في زمن ليس له طبيعة سردية. بمَ ظنت أيضاً؟ جلست في المكتب العاري تقريباً بالدور الثاني ولم تعرف بمَ ظنت أيضاً.

كانا يتحدثان كلّ صباح على المائدة زجاجية السطح بالحجرة المشمسة وتسجّل ما يقولان. الحجرة بدون تدفئة لكنهما جلسا مرتاحين بمجرَى تيار أيام مشمسة أمام فناجين خزفية بشاي النعناع.

يتحدّثان منحنيين نحو الجهاز وفيه أحياناً، كما يبدو معه، هو والجهاز فقط، وحين يتوقّف ثابتاً بين الإرشادات، يواصل فمه الذبذبة طفيفاً، حركة ظليلة تشبه رجفة شخص عجوز من انحناء أو هياج.

«هل عرفتَ راي؟ هل تعرف مَن أعني حين أقول راي؟»

«ليس بالضبط».

«حاول الردّ. رجاءً. تعرف أنه شيء يهمّني. فتكلّم مثله. قُل بضع كلمات».

هناك شفرة بأبسط حوار تدلّ المتحدّثين عما يدور خارج الصوتيات المجرّدة. كانت مفقودة حين يتكلّمان. هناك نبضة مفقودة. يصعب عليها التوافق مع درجة السرعة. كلّ ما لديهما كلمات غير منضبطة. فقدت معه اللمسة، فقدت الاهتمام أحياناً، لم تعد تعيّن راحات الإيقاع أو شواهد التوقيت أو حتى التمتمات والهمهمات، السكنات المسموعة التي تساير تعليقاً. لم يسجل استجابات بوجهه لأشياء قالتها وضلّلها هذا. لا درجات توكيد هنا أو فتور هناك. بدأت تفهم أن كلامهما دون حسّ زمنيّ والإشارات كلّها عند مستوى غير منطوق، كأشياء يشترك بها متحدّث بالألمانية مع متحدّث بالصينية. وكان هذا كلّه مفقوداً هنا.

«ادفعي الشيء».

«أدفع الزرّ. لا، لا تدفع الزرّ. إنه زرّ التوقيف. هل سمعتنا بالحجرة؟ هو وأنا. نتكلّم».

أرادت أن تلمسه. فهي لم تلمسه أبداً، لم تفكر، أو فكرت عرضاً، ربما، مرّة، حين حزّمته في كرسيّه بالسيارة، وهو يلبس سترة أو معطفاً.

«تعرفه حيث كان. تعرفه من قبل. سمعته يحدّثني. هل رأيناك؟ هل كنت مختبئاً في مكان لا نراك منه؟ تفهم الاختباء؟ تعرف صوته. فاجعلني أسمعه».

كانت تعرف، قالت لنفسها إنها ليست امرأة متوتّرة تواجه شخصاً يستجيب سريعاً لقوى نفسية، باستطاعته أن يجعلها تتواصل مع زوجها الراحل.

هذا شيء آخر.

كانت تراقبه. بدا شعره طباشيرياً اليوم. كأنه غير موجود هنا، على بعد أربعة أقدام منها. لم يعرف كيف يوائم نفسه مع ما ندعوه «الآن». ما هو عموماً؟ قد لا يكون الأمر هكذا مع مَن يتّخذونه أمراً واقعاً. ربما كانت تحتاج للكلام مع طبيب، أياً كان، فهي غير موقنة، ليخبرها عن طبيعة أجهزة البارومتر. تكره هذه الكلمة. تستخدمها لكن لا تعرف ما تعنيه واعتادت عليها عموماً. وجُنّت الطيور عند ملقم الطعام.

هاتفت ماريلا وأحضرت الجهاز. قال صوت مركّب، رجاء/ اترك/ رسالة/ بعد/ الرنّة. لم تكن كلمات محكيّة بل مولّدة ومنفصلة بإيجاز لكن بأبعاد عميقة. علّقت السماعة لتتّصل من جديد، فقط لتسمع الصوت ثانية. كم كان التقطّع غريباً. بدا وثبة كميّة، من كلمة لما تلاها. علّقت السماعة لتتّصل من جديد. لكلّ كلمة صوت واحد. خمسة أصوات مختلفة. لا خمسة أصوات مختلفة بل صوت ذكريّ واحد بخمس دورات زمنية. ولم يكن ذكرياً بالضبط. ولم يكن من كلمات قدر ما كان مقاطع مع أنها ليست هكذا أيضاً. علّقت السماعة لتتّصل من جديد.

سارت عبر الصالة الطويلة ثم على السلالم للدور الثالث وأمام

الحجرات الفارغة نحو الحمام قرب الطرف البعيد. كان جالساً في البانيو حين فتحت الباب. لم يحرّك رأسه أو بدا عليه أنه عارف. وقفت هناك تتطلّع. في يده صابونة وفي الأخرى كيس حمّام. ظلّ بهذه الوضعية، يدان متوازنتان، وهي تراقبه. لم يتحرك. لم يتطلّع فيها ولا بدا أنه عارف بأيّ وسيلة. كانت يداه بعيدتين تقريباً عن الماء، فضّة الصابون، وكيس الحمّام المُجمّع. الصابون كأنه فضّة بهذا التصوّر.

همست «انظر لي».

حين نظر، حيياً، مالت على ركبتيها عند جانب الحوض وأخذت من يده كيس الحمّام. حركته من جنب لجنب على كتفيه وأسفل ظهره. غسلت جوف ما تحت الذراع. هذا الإبط، ثم الآخر. أخذت الصابونة من يده الأخرى ودعكتها بالكيس ثم حمّمت صدره وذراعيه، وهي تسمّي له أجزاءه بصمت. أنزلت الكيس بنعومة في الماء، حيث سوّته وهي تغمره، ثم مسحت بطنه تحت الماء بالصابون، في حركة رتيبة، تدور يدها بطيئاً على سرّته. بعدها مالت عليه لتضع الصابونة بصحن الصابون، فضة الصابون، وكانت تراقبه طيلة الوقت، ثم وضعت يدها في الماء ومسّدت القضيب، ها هو، وتحفن وتدعك الخصيتين، تسمّي وتعدّد أجزاءه، واحداً بعد آخر، فبانت لمعة ندى صغيرة على شفتيه.

خرجت يده من الماء وهي تمسك الكيس. أخذته منه فرفعته منشوراً على وجهها ثم ضغطت المسام ودعكته على فمها ثم ردّته له ثانية. لمست وجهه، كان زغباً قليلاً، وكان حليقاً ومَن علّمه، ثم طاف إصبعها طرياً على فمه، يتبع شكل شفتيه. تابعت على أنفه وحاجبيه ولحمة أذنه بسطحها الداخليّ الملفلف. تتبع هذا بذاك. ويؤدّي هذا لذاك. لم تفزعه لمستها، أو اعتادها هكذا، فظنّت أن لا شيء يبدو غريباً عليه، أو مُجفلاً، أو مثيراً، قياساً ضد المنطق،

تعمية، مهما كانت. وجوده هنا قطعَ أنفاسها.

أحسّت شيئاً هشاً على حرف فمها، نصف داخل ونصف خارج، قد يكون شَعرة فحسب. اقتلعتها فنثرتها خفيفاً بإبهامها، سلك شَعرة من كيس الحمّام، ولم تعد تحسّ بها على وجهها فتطلّعت إليه ونظرت في يدها لربما كانت مجرّد حكّة.

بعدُ عادت إلى الصالة ولم يبدُ لها قطعاً أنها كانت تحمّم طفلاً ولا رجلاً أيضاً بالضبط، لكنه كان مَن كان، ثانيةً، بعيداً عن الميلان السهل نحو كلّ منهما/ أو أيهما، ولا تزال تجد أشياء تفحصها، وتتعجّب صاخبةً من استخدامه كيس حمّام، ما بدا أنه براءة عالية، دفاعاً منها عن أفعالها، وتحليلاً لاستجابتها الخاصة لحركة يدها عبر جسمه كأنها تخوض أميالاً بحدود أرض عنبيّة، في ضباب دافق، بسترة مزرّرة وبكرة شريط دائرية.

«كيف عشتَ هنا دون علمي؟»

«لكنك تعلمين. أني أعيش».

لطم خدّه نصف لطمة، ربما كانت نكتة بسيطة.

«في السابق. أسمع صوتاً وأنت بحجرة بالدور العلويّ. منذ متى وأنت هنا؟ تكلّم في هذا».

«أتكلّم في هذا»، قال بصوت كأنه محاكاة لها غير مقصودة.

كانت تسوق في البلدة، بشارع مرتفع بين صَفّي منازل، ورأت رجلاً يجلس في شرفته، أمامها، يتفيأ شجراً وشجيرات، فارداً ذراعيه، رجل أشقر بوجه عريض، يستريح. أحسّت عند هذه النقطة الصغيرة من الزمن، ربع ثانية تافهة أو نحوها، أنها رأته كاملاً. سرت حياته منفتحة أمام نظرتها العابرة. رجل متكاسل ومناور، في ريفٍ

حقيقيّ، أملاك بمنظر بديع جنب بحيرة بعوض. عرفته. تطلّعت فيه. كان هناك، مطلّق سكران، بعاطفة بعيدة عن صغاره، أولاده، ولديه الاثنين، بسترات مدرسية، في ومضة متجرّدة.

صوت يتلو الأنباء بالراديو.

حين مضت السيارة أمام المنزل، بسحبة دفع الثاني كاملةً، أدركت أنها لم تكن تتطلع في رجل جالس بل في لوحة يمكن وضعها متّزنة على حامل بين كرسيين. ربما بدا الأبيض والأصفر وجهه، والحامل ذراعيه، وعقل وقلب الرجل معلّقاً بالهواء في بقعة، ضاع تواً صوت قارئ الأنباء بالراديو.

طلبت رقم ماريلا وأحضرت الجهاز. أنصتت للتسجيل وعلّقت السماعة ثم طلبت ثانية وعلّقت السماعة. اتّصلت مرات عدّة طيلة اليوم التالي ونصف ما بعده ثم أنصتت للصوت المسجل ولم تترك رسالة. حين اتّصلت من جديد ردّت ماريلا، فوضعت السماعة، بهدوء، وجَمُدت تماماً بوقفتها.

قالت «تكلّم مثله. وددتُ لو تفعل هذا من أجلي. أعرف أنك تستطيع فعله. فافعله من أجلي. تكلّم مثله. قُل شيئاً تذكر أنه قاله. أو قُل أياً ما يخطر على بالك. أفضل. قُل أياً ما يخطر على بالك، كأنك هو. لن أسألك كيف تستطيع فعل هذا. أريد أن أنصت فحسب. تكلّم مثله. افعل مثله. تحدّث بصوته. كُن راي. اجعلني أسمعه. أطلب منك بأدب. كُن رفيقي. شخصاً مأموناً، هذا هو الرفيق. افعل هذا من أجلي».

طاروا مباشرة نحو رافدة النافذة، يجاهدون لنيل مساحة طعام، ينقرون غيرهم، الأجنحة تهمهم والصدور تحترق بيضاء من الشمس، بينما ينتثر الطعام من مناقيرها. طاروا سريعاً ثم عادوا، في شبه

تحويم، تسعة طيور، عشرة، أحد عشر، وثبت غيرهم بمرأى زجاج النافذة، بعضهم في شجر قريب، دون تغريد بالضبط لكن ما الكلمة الدالّة، سقسقة أم زقزقة أم صوصوة، وهاجم بعضها الآخر عند رافدة النافذة أو تدافعوا بمنتصف الهواء، طيور متحوّلة اللون، طيور منعوتة باسم، طيور تطعم وهي مقلوبة على عقبها.

وقفت ليلاً خارج حجرته وراقبته نائماً. ظلّت ساعة ثم راحت لشبكة الإنترنت تتابع بنظرها السيارات وهي تبدأ ظهورها في الطريق السريع المزدوج داخلة إلى وخارجة من كوتكا، في فنلندا، تراقب حتى تأهلت للنوم، أخيراً، مع وصول نور اسكندنافيّ.

الفصل الخامس

كان صبح آخر بطيء، ضبابيّ وساكن، والهاتف يرنّ. وقفت عارية في حجرة التمرينات، تميل يساراً، عيناها مغلقتان، تفحص الوقت على رسغها.

أو تجلس متقاطعة الساقين، بظهر منتصب، تنفّسها غريب، تنفخ منخريها ويصدر من حلقها رَجع أصوات، تتصوّر جسمها يرتفع ويلفّ، دوران مع كل نفَس.

أو تشرُع على أربعتها، ركبتاها تفصلان مسافة ردفيها، كفلاها مرتفعان، تحس بتمطيط قطة في وضعيتها، تؤدّي التفافاً بكتف.

تقف وتتأرجح حولها بطيئاً، تفحص الزمن بخلود، نصف جسمها يدور مع قوس ذراعها الأيسر، عقرب الساعة، أو يستدير الجسم بالذراع والرأس يعدو بشكل متزايد مثل عقرب الثواني بالساعة المفقودة، فم مفتوح وعينان محكمتان أبداً.

سمعت طائرة تعبر السماء ومن ثم يومض النور ذهاباً إياباً، نور الشمس، أشعة الشمس، حدث افترضته في جفنين مغلقين، وقد عرفت أن الضباب انقشع أخيراً.

حين أصبحت الدنيا رطبة وبرداً بالحجرة المشمسة، كانا يتكلّمان بالحجرة المكسوّة وهي تدوّن ملاحظات وتسجّل. كان يتحدّث قليلاً بفترات الصباح لكنه يرغب في الكلام أكثر من الآخرين وقد جلسا

قرب النار التي أشعلتها والمنزل حولهما ميت.

«وجودك هنا قد فهمته. أما أنا فمع اللحظة، سأغادر اللحظة. كرسيّ، طاولة، حائط، صالة، كله لأجل اللحظة، في اللحظة. فهمته. هنا وقريباً. من لحظة ذهابي، مغادرتي، سأغادر. سأغادر اللحظة بدءاً من اللحظة».

لا تعرف بماذا تسمّي هذا. سمّته غناءً. جعله يستمر وهلة، مطّرداً، مقترباً، وكان ذلك أغنية، كان ترنيمة. مالت نحوه. بدا هذا المستوى غير مستغلق على الإلهام. أحسّت راحة في جسمها سحبتها لأسفل بعيداً عن الفكر المجهد وإلى شيء غير مُسيطَر عليه تقريباً. مالت نحو صوته، ضاحكة. أرادت أن ترنّم معه، تسقط في وبعيداً عن الزمن، أو الكلمات، أو الأشياء، مهما كان ما يفعله، لكنها بدلاً من ذلك ضحكت فقط.

«في الذهاب والإياب أغادر. سأذهب وأعود. فهمتُ أنني أغادر. نحن كلّنا، سوف كلّنا، كلّنا سنغادر. لأنني هنا، وهناك. سأذهب أو لن أو أبداً. ورأيت ما سأرى. لو أكون حيث أكون. فلا شيء بيني وبيني».

كانت تضحك وهو لا. خرج ذلك منه دون توقف ولم يكن ذلك حديثاً فصامياً أو هتاف أجسام مترقرقة صدمها الربّ. جلس شاحباً وساكناً. كانت تراقبه. كان ترنيمة صافية، شفّافة، أو ربما كان يقول شيئاً لها؟ أحسّت بدوخة فصعب عليها أن تنصت بحرص. أكان يخبرها ما كان يبدو أنه هو، أنه يعيش في جسمه وعقله؟ حاولت أن تسمع هذا لكن لم تستطع. دامت الكلمات، حسّاسة وفارغة، وأرادت منه أن يضحك معها، أن يتتبّعها بعيداً عن نفسها. هذه هي المسألة، نعم، هذه إثارة العجب الحقيقي. وبعض الفزع على حافة، أو خشية

الظنّ، إزاحة للذات، لكن هذه هي المسألة، هذا هو وتد النشوة، المعنى العميق القديم للكلمة، عيناك تدوران لأعلى في جمجمتك.

«ما اللحظة؟ أنتَ قلتَ اللحظة. قل لي ما يعني هذا إليك. أرني اللحظة».

قال: «تكلمي في الموضوع».

«ماذا تعرف؟ من هو راي؟ هل تتكلّم معه؟ هل حدث وتكلّمت معه؟ هل تعرف من أتكلّم عنه حين أقول راي؟ أنا لورين. من هو راي؟ رجل. طويل جداً. انظر. طويل جداً. بهذا الطول. وشارب. رجل بشَعر على شفته العليا. انظر لي، متمرّد. كم طوله؟ هذا الطول. رجل بشعر كثّ على شفته العليا. لكنه بعدئذ حفّ شاربه».

حفّ شاربه. لقد نسيت هذا حتى الآن.

❑ ❑

رأت شيئاً يطلّ من زاوية عينها. أدارت رأسها ولم يكن هناك شيء. الهاتف يرنّ. قرّرت البحث عن فاحص نظر فقد ظنّت أنها رأت شيئاً عدداً من المرات، أو مرّة أو مرتين، من زاوية عينها اليمنى، أو عن طبيب عيون، وتعرف أنها لن تزعج نفسها. كان الهاتف يرنّ. التقطته وانتظرت من شخص أن يتكلّم.

حان وقت دفن جسمها بالرمل. كانت تستخدم حجراً بركانياً على سُفليّ قدميها، تضرب ضربات عنيفة دائرية، نتوءات تحت إبهام القدمين، الكعبين، ثم أعادت تصبين القدم ودارت بها لأعلى نحو يدها ثانية. كانت تحبّ مسك القدم باليد. تقشط الجلد الناتئ في صبر، مهمة تمتدّ عدّة أيام، تضيع فيها، جسمها ملتفّ بانتباه كامل، نوع وقور من امتصاص الذات الذي يميز خطاً من الطفولة.

معها رُقع صنفرة وملفّات، أنواع كثيرة من المقصات، قَصّاصات أظافر وكريمات تنشّط أفعال الاختصار والاستئصال. فحصت أصابع يدها وأصابع قدميها. هناك طريقة تعزل بها إصبعاً بعناية تامة، مستخدمة مكبّراً ومربّعاً كرتونياً داكناً، وهناك جلدة مدلاّة جنب الظفر تطير ومِزَق طولية وحبوب من جلد ميت وشذرات من ظفر، ذرات ضئيلة، طائرة في الهواء.

كان جيداً أن تؤدّي هذا من جديد.

❑ ❑

ربما يعجز هذا الرجل عن الدفاع عن نفسه ضدّ حقيقة العالم.

أيّ حقيقة؟ فكّرت، أيّ حقيقة؟

فكّرت، يُفترض بالزمن أن يمرّ. لكن ربما كان يعيش في حالة أخرى. في زمن بسيط غامر، زمن صريع، غير مُحدَث، تنقصه القدرة الفطرية على إعادة تصوّر هذه الحالة.

أيّ قدرة؟

لا شيء هناك يمكن أن يفعله لتخيل زمن موجود يُعاد توكيد سياقه، زمن يمرّ، يتدفّق، يحدث. عالم يحدث، مفروض عليه، ونحسّ به. بأسماء وتواريخ وفوارق.

مستقبله غير مسمّى. متزامن، بدرجة ما، مع الحاضر. لا يحدث قبل أو بعد الآخر وهما منفتحان بدرجة مساوية، ربما، فقط في باله.

فكّرت، تسمح قوانين الطبيعة بأشياء هي في الحقيقة، لن تحدث عملياً.

لكن يمكن.

لكن لا يمكن.

لكن يمكن. فكرت، فيما قد يكون في باله.

كانت تتناول عشاءات خفيفة سخيفة، بسرعة، تقضي عليها. لا يظهر أحياناً ويظهر أحياناً لكن لا يأكل ومرة تاه ست أو سبع ساعات وهي تفتّش المنزل ثم نزلت للطريق بالعتمة، تضيء بطارية بين الشجر وتقول بهدوء «أين أنت؟».

انتظرت بالداخل مع كتاب في يديها، وسنادة، تجلس وتفكّر، لا تفكّر، أيّ امرأة تعرف ما هو أسوأ.

دخل الحجرة عندئذ، يتحرك الهُوينى، بطريقته ذاتية التعبئة، كأنه، كأنه. راقبته وهو يحاول أن يهيئ هيكله في كرسيّ مجنّح فسمحت لنفسها بدرجة معينة من الراحة، نوع من خفّة الجسم التي تسحبها إلى نحو حالم من امرأة بليدة الحسّ معها كتاب.

فكّرت في رجل يبدو للعيان على غير توقّع. لا الرجل الذي كان هنا الآن. رجل آخر. لم يكن شيئاً، كان شيئاً خطر ببالها وهي تتناول إفطارها، رجل يبين فجأة، كما في فيلم، تُلتقط صورته من أسفل. لا تُلتقط بل تُصوّر فوتوغرافياً. لا تُلتقط في صورة بل تأسرها حركة سينما، من أسفل، كأن طيفاً يلوح. يهلّ مثل صدمة، بالطريقة التي يحدُث بها، رجل عند باب، مضاء بطريقة وطريقة ما، متوعّداً، للتأثير، أو مواجهاً لها في الدرب حين تخرج من سيارتها، رجل ضخم، طيف يلوح فجأة فوقها. إنه صدمة العالم الخارجيّ، الضربة القاضية، صعقة الاقتحام، واللحظة المستدعاة بطريقة مهدّدة بشكل عميق لاثنين ممن يعيشان في تنسّك، بظروف منهمكة في الذاتية. يظهر أنه مالك المنزل، رجل ضخم، نعم، للتأثير، عجوز لكنه عفيّ، أو ليس عجوزاً جداً، ويظهر أكثر أنه هنا ليتكلّم عن مستر توتل.

رأت نفسها بالمشهد، على الدرب، تنصت للرجل. كان مجرّد شيء عابر، قصة حكَتها لنفسها، أو شوهدت على شاشة، قابلة للنسيان. الرجل يفسّر لها أن مستر توتل، بأيّ اسم كان، هو فرد من العائلة كابن عم من الدرجة الثانية، أو أنه ابن، هذا أفضل، لأخت محبوبة، وقد قضى ردحاً من حياته في هذا المنزل، بحالة غير مشخصة، أو تلف دماغيّ، أحسن، وقد قامت على رعايته بعض الوقت ممرّضة مستأجَرة من قبل الرجل، المالك، غير الرسميّ قليلاً، الرثّ قليلاً والحزين غالباً، نوع من حزن عائليّ، وحين اعتزم المالك وزوجته آلما أن يعيشا في مكان، مع أطفال كبار وبدآ تكوين عائلة، قررا استئجار هذه الكومة العتيقة غير المتوازنة، مدفأتهما التذكارية ومنزلهما، وربما ابتاعا أخيراً، ومن ثم أنزلا مستر توتل، الذي لا يُستخدم اسمه الحقيقيّ، في مصحّة لمن يعاني من حالة أو أخرى، على بعد مائة ميل من هنا، حالات تعمل على ما وراء الحدس الأكثر تهوّراً، وهو ما لم يخطر ببال العائلة حين سمعت أنه فُقد من المصحة، أنه قد يستطيع إيجاد طريقه عائداً للمنزل، حتى الآن. خطر لهما الآن، ولذلك كان المالك هنا، يستفسر.

تحجم في خيالها، كما يفعل المالك، عن استخدام تمثيل الكلب الضائع كما يتواءم الحال مع مستر توتل، بعيداً عن أيّ شكّ أو نحوه، وهكذا انتهى الموضوع، بدرجة أكثر أو أقل، عبر إفطار، مع المالك والمستأجر في الدرب، وهو يتطلّع غامضاً في المنزل.

لم يخرج اسم آلما من مكان. بدا قابلاً للتصديق تماماً. بدا كلّ شيء قابلاً للتصديق، حتى عودة الكلب الضائع، وأصل المشهد أنه لن يصل للنقطة التي تخبره فيها هل ستتخلّى عنه، لكنه انتهى، على نحو أبتر مثل هذا.

سارت على الأرض، تحسّ بما كان هنا، كلّه سماء ونور، صوت الدقّ في مكان بأحد المخيمات بعيداً عن الطريق القذر، على بعد نصف ميل تقريباً، صوت مريح بالريح، وكيف يعمّق وضوح الأشياء خطوتك، يمنحك شيئاً لتمسكه وتقبضه، ومن ثم توقف القدوم. سارت وفكرت. كان واحداً من صباحات تخلو من الطيور. سكون معلّق حول الملاقم، مجرّد فراغ، مكبوح من عمقه.

لاحظت بالداخل أولاً أنه يلبس الحذاء الذي ابتاعته له، كان أنيقاً، مربوطاً، بنعلين مسندين، وسرّها هذا.

جلسا بالحجرة المكسوّة مع المسجلة على طاولة قهوة بينهما.

من علّمه ربط حذائه؟

كان يحدّق فيها. بدا أنه يحدّق لكن ربما لم يكن. لا تظنّ عينه قادرة على البحث وتشكيل الأشياء. ليس بدرجة معتادة على أيّ حال. يُفترض من العين أن تشكّل وتركّب وتلوّن. تخبرنا حكاية نودّ تصديقها.

«ثم متى يأتي إليّ».

«ماذا؟»

«شيء من أشياء أكثر. أيام نعم سنوات».

«هل تعرف ما يعني ذلك؟ يوم. سنة. أم تسمعني أستخدم هذه الكلمات؟»

«قولي بضع كلمات».

«أقول بضع كلمات».

«حين تجيء».

قالت: «حين تجيء. ماذا؟»

«رحيل في رحيل».

«من يرحل؟»

«هذا عندما أنت، نعم، قلت».

«ماذا قلت؟»

أدركت أنها لم تناده باسمه. كانت تنطق اسمه فقط وهي وحدها، تتكلم في شريط المسجلة. لأن، طبعاً، فلنعترف. الاسم بارع ولطيف.

قال: «لا تلمسيه»، بصوت لم يكن بالضبط صوته. «سأنظّف هذا كلّه فيما بعد».

سقط في صمت بعد هذا. نعم، سقط. أظهر نظرة مسبلَة، عبوس أرواح لو قرأته بشكل صحيح. كانت تتلو ترنيمة أطفال، بالفرنسية. حاولت أن تجعله يردّد سطراً وبذل جهداً، مؤثراً وعاجزاً، فوجدت نفسها تصف المشهد، ذهنياً، إلى شخص قد يكون ماريلا، أو لا، كأنه قطعة من لُقية فن كانا يحتاجانها، بينهما، لإقرار استفسار عن صلاحية استعماله.

فترات بعد الظهر، تمضي سريعة أبداً، تلاشى الضوء الأخير في التلال عبر الخليج، في كلّ شيء حولها، أشجار وأرض وأوراق تدوسها تحت قدميها، صدأ مصفرّ وذهب، وترى عبر كتفها خصلة من إوز تمرّ في سكون، تطير على العالم في ليلتهما السرية.

بدأت تفهم أنها لم تفقد راي، لم تقدّر غيابه، كان فقدان راي من غير تفكير في مقابل هوامش مستر توتل.

حين لقطت الهاتف الرنان، انتظرت ليتكلّم المتّصل أولاً وأحسّت برضىً محدود عنيف من هدهدة جزيئات غامضة.

أخذته للخارج في ليلة صافية وتتبّعت كوكبة نجوم بإصبعها. دام تطلّعها وهلة في سماء الليل وبان تنفّسهما مفعماً بالدخان في الهواء المرتجف. سحبته أمامها وقريباً منها، وضعت يديه بجيبَي سترتها ثم أطلقت كلمات في وجهه جعلته يردّدها.

قال: «الكلمة المعنية بنور القمر هي نور القمر».

جعلها هذا سعيدة. كان أمراً معقّداً بصورة منطقية ومثيراً بصورة غريبة وجميلاً وحقيقياً بصورة دائرية. أو ربما لم تكن دائرية بل مستقيمة كما تكون عليه الاستقامة.

كان عليها أن تجد اسماً تستطيع مناداته به في وجهه.

وجدته شيقاً أن تظنّ أنه يعيش ضمن حقائق متوافقة.

أشياء كثيرة شيقة، حمقاء، لكن لا مكان يبدو واقعياً.

ذكّرت نفسها أنها تحتاج بطاريات لشريط المسجلة.

تحبّ أن تفكّر. بم تحبّ أن تفكّر؟ يومها مقبض وأرادت أن تضع اللائمة على الضباب.

ربما يسقط، يزلّ، إن كانت هي الكلمة المفيدة، من خبرته عن العالم الموضوعي، الوصف الأعمق للزمان/ المكان، حيث لا يشعر بحسّ عن وجهة المستقبل. يزلّ في خبرتها، خبرة كلّ واحد، التسلسل الزمنيّ للأحداث القياسية التي تقبّلها الشمس.

هل أنا أول بشريّة تخطف غريباً؟

الضباب أشد دكنة وبرونزية في دورانه للأسفل نحو الساحل لكنه يضيع بعد بلوغه اليابسة، يأخذ كلّ شيء معه في ظلمة موّارة.

لو لم يكن هناك نظام متعاقب غير ما نُحدثه فيجعلنا آمنين في

العالم، إذن لكان ممكناً، ماذا، أن نعبر من حالة غُفل الاسم إلى أخرى، عدا أن الأمر ليس بهذا الوضوح.

ذكّرت نفسها أنها تحتاج بطاريات. قالت لنفسها تذكّري.

كان من نوعية الأيام التي تنسى فيها الكلمات وتُسقط أشياء وتتساءل عما يجيء بك إلى الحجرة لتنال شيئاً فتقف هنا لسبب ما وتُبلغ نفسك أنه مجرد سؤال عن شيء عاجل أو آجل قبل أن تتذكّر فأنت تتذكّر دائماً حالما تصل هنا.

الموضوع متّصل نوعاً.

نزعت الشَعر بالشمع عن إبطيها وساقيها. خرج ممزّقاً بعنف في أزيز بارد. لديها كريم مُقشّر حمضيّ، بقوام صلب، موصوف، وبعد نزع الشَعر دعكت بالكريم لنزع الجلد التالف في قشور وحراشف ومُضغ مطوية صغيرة تحبّ لقطها بين إصبعيها وتتخيل، بصورة مولّدة للمرض، موت خلية من شيء بداخلها.

تستخدم فرشاة من شَعر قرد على مرفقيها وركبتيها. ودّت لو تؤلمها.

ليس ضرورياً أن تذهب إلى «تانجر»، فلديها رغبة في شراء لوف حمّام وآيس كريم برتقال. كلّ ذلك في مراكز التسوّق، بالأجنحة العالية، وكذلك فرش الوجه، الأمواس والفِريك الحبوب. يشغلها هذا، أن تختفي عن كل مسارح سيماء أحداثها الماضية وتتحمل وتصبح فراغاً، سجلاً جسدياً ممحواً من كل تشابه سابق.

كان لديها كريم باهت تدهن به في كلّ مكان، لنزع خضاب وجهها. قصقصت قليلاً من شَعر رأسها ثم أكثر. كان عملاً عنيفاً وصار وحشياً تقريباً حين قامت بتبييض اللون. ودّت في المرآة أن ترى شخصاً كان غير مرئيّ بصورة تقليدية، شخصاً درّبته لتتجلّى عبره،

نازفاً من أثر شائع، شبحاً في ليل ساكن بكلّ حمّامٍ عمومي.

كانت تستخدم مواد ضد النزف لنزع رواسب الصابون والشحوم والقَذَر المتخلّف المزمن. هناك شرائط بلاستيكية ألصقتها عليها ثم قشّرتها، لاستئصال الملوثات العديدة التي تسدّ المسام بالتكيّسات.

هذه الإفرازات الشحمية نظام خفيّ، مثير للاهتمام، حوادث فطرية في كون جسمها، تقيحات وطفح جلديّ صغير، دهون مغروزة، زيوت، ملح وحلو، وكيف تكون تقريباً ملذات الاقتلاع.

وجدت مليّن العضلات الذي اشترته لأجل راي فقط قبل أن يرحل وقد استخدمته لمجرد أن تستخدمه.

وقفت تتطلّع فيه، جسمان في حجرة. بدا أنه يتقهقر تحت المراقبة، انسحاب داخليّ، لا قلقاً كما فكرت، بل عفوياً، لا إرادياً، منقاداً بقانون مورّثات جسمه. وضعت يديها على كتفيه وتطلعت في عينيه. فكّرت، متى يبدأ الناس النظر كلّ في عينَي الآخر؟ هذا ما فعلته، بدقّة، وهي تقف بالمطبخ مع مستر توتل.

لا تلمس هذا. سأنظّفه فيما بعد.

كانت عيناه رماديتين لكن فيم يهمّ هذا. كانت عيناه بعيدتين عن الرماديّ، فهما معتدلتان وساكنتان وغير متوتّرتين. تنظر. كانت تنظر دائماً. فلا تحصل على ما يكفيها. شحبت عيناه الرماديتان في هذا النور المزعج، المصفرّ طفيفاً، ولم يكن هناك أدنى انفعال من نفس رعديدة.

وضعت وجهه بين يديها، تتطلّع فيه مباشرة. ما يعني هذا، أهي أول مرة يتطلّع فيها عميقاً مخلوق مفكّر في عينَي الآخر؟ هل أخذ هذا مائة ألف عام قبل حدوثه أم كان أول ما فعلوه، بصورة فائقة، ما جعلهم أسمى، متمدنين، النظرة التي تبين أننا مستوحشون في أرواحنا؟

قالت: «لماذا أظنّ أني أقف بقربك أكثر مما تفعل معي؟»

لم تحاول المرح. كان شيئاً واقعياً، تناقضاً ظاهراً لكائن شبحيّ. ثم حاولت المرح، مستخدمة كلاماً عذباً وأسماء تودّدية، لكن أحسّت على الفور بالحمق فتوقّفت.

تناول الإفطار، أو لم يفعل، تاركاً معظمه. ثم وقف بالمدخل بين المطبخ والصالة الطويلة التي تؤدّي إلى الردهة. جلست إلى المائدة، تنتظر. كان يتطلّع فيها أو عبرها وعرفت تقريباً ما سيأتي.

قال: «لكن إلى أين ذاهبة؟»

قال: «قليلاً إلى البلدة».

قال: «لكن لا نحتاج شيئاً من هناك. وسأحضره إن كنا نحتاجه. أعرف ما سأحضره. إننا نحتاج بعضاً مما ماذا يُدعى. مسحوق تنظيف».

قال: «ماذا؟»

عرفت تقريباً على الفور، حتى قبل أن يتحدّث. لم تعرف بالتحديد لكن أحسّت وشعرت بالتغيّر فيه. كان الشاي يدخّن في كوبها الفخار. جلست إلى المائدة وراقبته ثم عرفت تماماً أمر التبادل الكهربيّ الأول، لأن الصوت، لم تكن الأصوات تخصه.

«لكننا لا نحتاجه الآن، هذه الدقيقة. سأجلبه حين أذهب. آجاكس. ذلك هو. لا شيء هناك لنطهّره الآن».

أصغت، هي الأشياء فعلاً لا سواها، الأشياء التي قالتها.

«آجاكس، ابن تيلمون، أظن، إن كانت حربي الطروادية لا تزال بكراً، وقد نحتاج جريدة فالقديمة جدّ بالية، ومحارباً شجاعاً عظيماً، رامي رماح من مسافات بعيدة، ومطهّر حمام أيضاً».

هل تدرك ما قلتَه أنتَ من أسابيع، نعم، لو أعيد على مسامعك

من جديد، نعم، إن كان آخر شيء قلتَه، بين الأشياء الأخيرة، لشخص تحبه ولن تراه أبداً من بعد. هذا ما قالته له قبل أن يدخل السيارة ليقود، آه لو تعرف، طيلة الطريق إلى نيويورك.

قال: «فقط لمجرّد القيادة. هذا كلّ شيء. سآخذ التويوتا»، قال: «إن وجدتُ مفاتيحي».

هذا ما كان يقوله الرجل بالمدخل، بدا صغيراً وضعيفاً، مهزوماً من شيء. لا يبدو حدثاً من الذاكرة. كان صوت راي المباشر، كانت روح زوجها النغمية، لكنها لا تظنّ الرجل يتذكّر. كان أمراً حاصلاً الآن. هذا ما ظنّته. كانت تراقبه يجاهد نطقه ويظن أنه يحدث، نوعاً الآن، في إطاره، بزمانه المحطّم، وهو فقط يُبلغ، عاجزاً، ما يقولانه.

قال: «لم لا نقوم بنزهة. يوم عظيم. اتركي السيارة، اتركي المفاتيح».

قال: «إنها في السيارة. طبعاً. المفاتيح. أين أيضاً؟ ها هي. ماذا أقول؟ إنها هنا دائماً».

وقف بالمدخل، دون مبالاة. راي حيّ الآن في عقل هذا الرجل، في فمه وجسمه وقضيبه. تكهرب جلدها. رأت نفسها، ترى نفسها وهي تزحف نحوه. صورة هناك أمامها. تزحف على الأرض كواقع مجازيّ بالنسبة لها. تحسّ شيئاً ينفصل، يتخلّع بنعومة، فتحاول أن تجذبه هو معها إلى الأرض، توقفه، تجعله هنا، أو تزحف صاعدة إليه أو فيه، تتحلّل، أو ترقد فحسب منكبّة وهي تُرهز دون توقّف، كمن تراقب نفسها من علٍ.

استطاعت شمّ مرهمه على جسمها، حكّة عضلته، وبعدها راح كلّه يتكلّم.

الفصل السادس

تقف إلى المائدة فتخلط أوراقاً وتُسقط شيئاً. لا تعرف ما تفعل. يستغرق الأمر ثانية أو اثنتين قبل أن تعرف وعندئذ تعرفه كتشوّه غير متشكّل من الفضاء المحتشد حول جسمك. لكن لو تعرف أنك تُسقط شيئاً، فستسمعه يرتطم بالأرض، متأخراً عن موعده. صوت يشقّ طريقه في شبكة هائلة من المسافات. تسمع شيئاً يسقط وتعرف كنهه بالوقت نفسه، أكثر أو أقلّ، إنه قصاصة ورق. تعرف هذا مما يُحدثه الصوت مرتطماً بالأرض ومن الذكرى المستعادة للسقوط نفسه، شيء يسقط من يدك أو ينسلّ من حافة الصفحة التي قُصّ منها. انسلّ من حافة الصفحة. تعرف الآن أنك أسقطته، فتتذكّر كيف حدث، أو نصف تتذكّر، وقد تراه أو ترى شيئاً شبيهاً. قصاصة ورق ترتطم بالأرض واثبة من طرف لطرف، شاحبة وعديمة الوزن، صوت لا توجَد له كلمة مُحاكية، صوت قصاصة ورق وهي تسقط، لكن حين تنحني لتلتقطها، لا تكون هناك.

وقفت تلك الليلة خارج حجرته تُنصت إليه وهو ينشج. كان الصوت مسلسل صرخات ضعيفة، نصف صرخات، كئيبة ومتماثلة، لها صدىً شاحب، مرتدّ، كما تحمل أسىً ينجرف جنب كلمات، كلماتها أو كلمات غيرها.

لم تعرف ما يعنيه ذلك. عرفت طبعاً. فليس لديه سطح واقٍ. كان وحيداً وعاجزاً عن الارتجال، ابتكار نفسه. ذهبت للفراش وجلست

هناك، تعرض لمسات وأصواتاً مهدئة، تطمينات إلى الليل.

ارتعب. كم هو بسيط وواقعيّ. حاولت أن ترعاه، تخلّصه من خوفه. هنا في عواء العالم. كان هذا هو الوجه العاوي، العاري، غير الشبيه بالأشياء.

لكن أنّى لها أن تعرف هذا؟ لم تستطع.

ربما كان مجرد مخبول، أحمق على غير وتيرة واحدة. لم يكن روتينياً، بل هو أحمق يرغب بالعيش في أصوات الآخرين.

رقد ملتفاً ببطانية رقيقة. كشفته ورقدت فوقه. عليكَ أن تقدّم السلوى. قبّلت وجهه ورقبته ودعكته ليسخن. وضعت يدها في لباسه وبدأت تتنفّس معه، تقوده بتأوّهات أنفاس محدودة. هذا ما عليك أن تفعله حين يرتعبان.

❑❑

ظنّت أنها رأت طائراً. بعيداً عن زاوية عينها رأت شيئاً ينهض أمام النافذة، غريباً وشبيهاً بطائر وربما لم يكن طائراً. تطلّعت وكان طائراً، خطّ طيرانه عموديّ تماماً، جسمه البنيّ مخطّط أفقياً، جناحاه يخبطان بهدوء، عصفور، لا يحوّم مع الريح بل يبذل طاقة ليرتفع ثم يختفي لحظياً.

رأته مستعاداً على الأغلب فهي لا تعرف ما رأته بدايةً وكان عليها أن تعيد تخليق اللحظة الشبحية، تكتبها مثل سطر بمقطوعة روائية، وربما لم يكن عصفوراً على الإطلاق بل طائراً صغيراً، رمادياً لا بنياً ومنقطاً لا مخطّطاً بل ليس صغيراً كالطائر الطنّان، وأنّى لها أن تعرف بالتأكيد إن لم يحدث ذلك ثانية، وتفكّر عندئذ، تفكّر عندئذ ثانية.

غير صحيح فهو لا يمكن أن يكون صحيحاً. لم يكن راي حياً في وعي هذا الرجل أو في توتّر فعله الصريح، سيره وهو يتكلّم متّصلاً.

كلمة لطيفة. ماذا تعني؟

ظنّت أنها تعني شيئاً متّصلاً، كلاً متّصلاً، والطريقة الوحيدة لتمييز جزء عن آخر، هذا عن ذاك، الآن عن حينئذ، هي تركيب تصنيفات اعتباطية.

هذا بالضبط ما لا يعرف كيف يفعله.

تقوم بتشغيل جسمها وهي رابضة على أرض باردة، تتشمّم نفسها.

ولم يكن صحيحاً أنه ينجرف من واقع لآخر، مستقلاً عن منطق الزمن. ليس محتملاً. فأنت مجبول بعيداً عن الزمن. إنه القوة التي تخبرك من أنت. أغلق عينيك وتحسّسه. فهو الزمن الذي يحدّد وجودك.

والمعضلة أنه يلتفّ وينزّ، نوعاً، في فسحة كائن آخر، حياة زمن آخر، وهذه سمة ارتباكه وألمه.

نوعاً. الكلمة الأضعف في اللغة. وأكثر أو أقلّ. وربما. ربما دائماً. كانت هناك دائماً كينونة مفترضة.

ركعَت، بجسم منتصب صلب، ساقان ترفعان سناماً، رأس للوراء، ذراعان للوراء، والحوض مندفع أماماً.

دع الذراعين يترنّحان لأسفل.

اليد اليمنى مدلاّة على القدم اليمنى وبعدها اليسرى على اليسرى.

كلّ شيء يتدفّق فيما وراء الحوض.

ضع الراحتين على الكعبين، ووائم اليدين على القدمين.

الزمن هو السرد الوحيد المهمّ. فهو يمطّ الأحداث ليجعلها ممكنة لنا فنعاني ونخرج منها ونرى الموت يحدث ونخرج منه. لكن ليس بالنسبة إليه. فهو في قاعدة أخرى، ثقافة أخرى، حيث الزمن

شبيه بنفسه، شفّاف وعارٍ، فارغ من مأواه.

ثبّت الوضع.

كلّ شيء يتدفق مما وراء الحوض إلى الصدر والكتفين والذراعين، إلى الرأس المتهيّج الطائر إلى الخلف.

ثبّت الوضع، تنفّس كالعادة، ثم على غير العادة.

كرّر.

❑❑

بدأت الريح هبوبها ظهراً وكانت لا تزال تهزّ النوافذ وهي تسير عبر الصالات منذ خمس ساعات.

يرنّ الهاتف.

أسقط كوب ماء في المطبخ ومدّت ذراعاً، ترى بقعة مبتلّة تبدأ انتشارها على الأرض الخشبية.

تجعلها الريح الصاخبة متوتّرة، تديرها نحو باطنها، أسوأ من ثلج ذائب أو رواسب ثلج تُسقط خطوط الكهرباء.

أشعلت المدفأة ومضت خارج الحجرة ولأعلى السلالم، تنصت للحوائط بتوتّرها المجهد.

قالت في المطبخ: «لا تلمسه».

أفضل ما في هذا المنزل، أرضية المطبخ من الخشب ودرابزين من البلوط حتى بيت السلم. فقط تقول الكلمات. تفكّر بالكلمات.

قالت: «لا تلمسه»، ومدّت ذراعاً، عرضت يدها لتحيط بالجهد الذي يبذله لالتقاط أيّ قطع. «سأنظّف ذلك فيما بعد».

هناك شيء عن الريح. فهي تجرّدك من الثقة، تعمل فيك، باستمرار، تجعلك تحسّ بالرقّة المخفية في كلّ ما هو حولك، كلّ ما هو صلب من مائة تعهّد. وثيقة مؤقّتة أشدّ تبدياً.

قامت بتنظيفه كلّه الآن. لم تنتظر فيما بعد. هناك شيء باللحظة تحتاج الاحتفاظ به.

❑ ❑

لقطت الهاتف الرنان وكان محامي راي على الطرف الآخر. شيء عن الديون. كانت عليه مديونية ثقيلة. هناك التزامات ومسؤوليات قانونية. استدان لإسقاط ديون أخرى. جعلها هذا تحسّ أنها بخير. هكذا راي على أيّ حال. أحسّت بدفق من العاطفة رغم أن الأخبار جعلتها تفكّر في مصادر تمويلها المتشائمة. كان راي الذي عرفته لا أيّ شخص آخر. هي متأكّدة من أنه لا يعي الموقف أو يعتبره متمّماً لشرط حياته الذي كانت المعرفة به مجرّد صيغة أخرى لعدم المعرفة به. لم تكن ديونه تشغل وعيه أكثر من سعلة ناعمة في يوم صائف. هناك قروض غير مدفوعة، حسابات بمتأخرات وضرائب بموعد استحقاق طويل. كان الرجل يتلو أرقاماً بصوت فيه براءة حكومية. أبان عن تورّطات، وعمليات نقل فاسدة بمسؤولية زوجية. ضحكت بسعادة وتمنّت له الفأل الحسن.

ثم كفّ عن الأكل. أجلسته إلى المائدة فأطعمته بيدها. كانت تستحثّه وتلحّ عليه. تناول قليلاً من الطعام، ثم أقلّ. حاولت إرغامه على الأكل لكنه رفض معظمه سلبياً، يتفاداه برأسه، أو يأخذه للداخل ثم يدفقه للخارج، يجعله يسيل أو يتقيأ.

بدأت تأكل هي نفسها أقلّ. تنظر إليه ولا ترغب في طعام. لم

يتناول شيئاً يُذكر بعدها خلال ثلاثة أيام جرت وهي تناولت أكثر قليلاً. كان ذلك مناسباً نوعاً. وهو ما لم تفكّر فيه بطريقتها.

تنظر إليه. نذل بائس. تراقبه بكل توتّر اللحظات والساعات الأولى لكن لا شيء بنظرتها أشعرها بالاختلاف الآن، ولع مميت تقريباً.

كانت تتبعه أحياناً بالمنزل. تراقبه وهو نائم. كلّ صباح على الشريط، أسئلة وإجابات، دروس قليلة وحفظ عن ظهر قلب، ثم يشحب هذا كلّه في دُوار من كلام شارد أكثر أو أقلّ من صمت متّفق عليه. أطعمته حساءً وهو يجلس على تواليت الحمّام مرة. أيام بلا روح تنقضي على نحو رتيب.

وصلت للسيارة أخيراً وبدأت تقود بالطرق الخلفية، الطرق المنيرة، كلّ الأماكن التي لا يذهب إليها أحد، ثم غادرت السيارة وسارت بالحقول لأعلى نقطة، هضبة صغيرة مستديرة أو منحدر، وفحصت المنطقة وهي تضع يديها عند صدغيها، تفتّش عن مستر توتل.

كيف يبدو من طريق طويل بعيد، سائراً على الدرب الذي سار عليه، في عزم، بفضاء ملتو؟

كأنه شخص تفتقده بسهولة. كأنه شخص تراه عملياً لكن لا تستطيع تذكّره بطريقة تأويل معتادة.

كأنه رجل مجهول لنفسه.

كأنه شخص تراه ثم تنسى ما رأت. هكذا، فوراً.

لا تجد مناظير بالمنزل وما المشكلة على أيّ حال. لم يكن بأيّ مكان هنا. لكنها فحصت لساعات من مواقع مختلفة، ويدان عند صدغيها لحجب الوهَج.

كيف يمكن لشخص مفرط الحساسية أن يجد نفسه وحيداً بالعالم؟ مجبول هكذا. لأنه كان حساساً. لأنه وحيد.

أو قد تراه مقلوباً على عقب، بطريقة رؤية العين قبل أن يتدخّل العقل.

قادت السيارة لتعود للمنزل ثم أنفقت، من حجرة لحجرة، وقتاً أكثر. ظنّت أنها تصعد السلالم ثم تسير في الصالة فتصعد الدور الثالث لتجده بحجرة النوم الصغيرة بعيداً عن الحجرة الفارغة الكبيرة في الطرف البعيد من الصالة، كما كانت أول مرّة، يجلس على حافّة الفراش بملابسه الداخلية.

ولأنه لم يكن هناك عرفت أنه لن يكون هناك، إن كان ذلك يُجدي. خطوات قليلة واسعة قبل أن تصل المدخل الذي عرفت أنه لن يكون فيه ومن ثم لم يكن هناك. عرفت ذلك من البداية.

خلّت نفسها تهيم بالأروقة، تفتقده. لقد رحل تماماً لا شيء تبقّى منه هناك، ولا نفَس واحد قريب من وجوده، لكن والحجرات فارغة حولها، أحست بشيء في جسمها يسعى للقبض عليه هنا.

بدأت الاتصال بنُزل العلاج، مفعمة بالتهكّم، وتنصت لأصوات مسجلة وتضغط أزرار الاختيار وتتحدث أحياناً إلى أحد بصوت مخترَع باهتمام متوسط.

منحت نفسها يومين لإنجاز هذا. في ظهيرة اليوم الثاني كلّمت مدير مصحّة نفسية بمستشفى صغير يبعد حوالي الساعة جنوباً وأخبرها عن رجل يتلاءم بخشونة مع الوصف العام الذي أمدّته به، أدخله المصحة في اليوم السابق مع تعليق الاختبارات.

لم تؤكّد على التفاصيل. ودّت لو كان هو، من اعتنت به

وأطعمته، نظيفاً وآمناً ومداوىً. حراً، أخيراً، لا يعاني.

لكن لماذا يكون هو؟ فهو ليس مريضاً عقلياً. لماذا فكّرت في الاتصال بمصحّات نفسية في المقام الأول، بعد أن اكتشفته تواً؟ لم يكن يتصرّف بجنون، هناك مجرّد تلف بأمور صوتية ومعرفية. لماذا فكّرت أن به شيئاً نفسياً مثلما نحسّ أن من يهدّدون ادعاءاتنا نظنّهم دائماً مجانين؟

وربما كان كذلك.

لديها شيء ألصقته بفمها، أداة مسنّنة، منمنمة، بلاستيكية، ضغطت عليها بظهر لسانها وحكّت الحطام المتراكم هناك، نَثرة طعام، مخاط وبكتيريا.

لم يكن هذا دفاعاً ضدّ أعمال الجسم الطبيعية. هذا فقط ما فعلته.

قامت بحساب المتطلّبات المعقولة. ثم ضربت عنها صفحاً. ثم حطّمت هذه المتطلّبات. هذا ما كان يجب أن يتمّ. كان من الضروريّ تحوير الصورة المرئية، باللسان. كانت تقمع شيئاً، تسدّ المخارج إلى الذات، بالنفايات من عمق اللسان، تلغيها عن الرؤية البشرية. فإرادة العقل فوق الجسد.

كان من الضروريّ أن تفعل هذا. فاستلزم فعله.

لم يكن مستقبله تحت التأسيس. كان فعلاً هناك، عُرضةً للدخول.

امتلكته على الشريط.

لم تكن ترغب في تصديق هذه الحالة. كان مستقبلها أيضاً. إنه مستقبلها أيضاً.

شغلت الشريط اثنتي عشرة مرّة.

إنه يعني أن حياتك وموتك موضوعان على المحكّ، فقط ينتظرانك لتثبيت المواعيد.

أنصتت إليه يقول، لا تلمسيه. سأنظّفه فيما بعد.

شيء لا تعرف شيئاً عنه.

ثم قالته بنفسها، بعد أيام. كان معها هناك. كان مستقبلها، لا مستقبله.

كم من أساطير نبنيها بخبرة زماننا؟

لا تلمسه، قالت.

عرف أن هذا سيحدث. هذه كلمات ستقولها. كان معها هناك.

سأنظّفه فيما بعد.

أرادت خلق مستقبلها، لا دخول حالة متشكّلة فعلاً بخطوطها الخارجية.

شيء يحدث. قد حدث. سيحدث. هذا ما ظنّته. هناك قصة، دفق من الوعي والإمكان. المستقبل سيأتي إلى الكينونة.

لكن ليس من أجله.

لم يتعلّم اللغة. لابد أن هناك نقطة متخيلة، لا مكان حيث تنشطر اللغة مع مدركاتنا عن الزمان والمكان، وهو غريب عند هذا المنعطف، دون كلمات أو محمولات.

لكن ماذا كانت تعرف؟ لا شيء. هذا هو قانون الزمن. شيء لا تعرف شيئاً عنه.

أنصتت إليه يقولها، على الشريط، بصوت قد يكون صوتها.

لكنها اخترعته، معظمه. لا من نقطة المنطلَق. لكن باستعادة، في

الذاكرة.

لكنها امتلكته على شريط وكان هو وهو يقوله.

ثم قالت ذلك بنفسها لكن ماذا. ماذا لو قالت الشيء نفسه بالكلمات نفسها.

لا يعني شيئاً هنا. فالناس تقول الشيء نفسه.

هو صوتها على شريط، تقوله، لكنها نسيت ما قالته حين أسقط كوب الماء. قد يكون مختلفاً. طفيفاً، جداً، باختلاف معقول.

لكن ماذا لو كان الشيء نفسه.

ليس الماضي والحاضر والمستقبل أسباباً لراحة اللغة. فالزمن ينبسط بشقوق الكينونة. يمضي عبرك، مصنوعاً ومتشكّلاً.

لكنه غيره إن كنت هو.

فهو رجل يتذكّر المستقبل.

لا تلمسه. سأنظّفه فيما بعد.

لكن لو تفحّصت الأمر منطقياً. فكّرَت، كوني منطقية وحلّلي ببرود. حطّميها وأنعمي النظر.

لو تفحّصت الأمر منطقياً، فستدرك أنه رجل معوّق وهِبَ أساه بمناطق خاصة، مثل قدرة التذكّر والتنكّر البيئيّ، رجل كان محتجباً في منزل كبير، ينصت.

لا شيء آخر له معنى.

إنه الشيء الذي لا يفهمه أحد. لكنه يصنعك ويشكّلك. وفي هذه الليالي منذ أن غادر، تجلس أحياناً مع كتاب في حجرها، عيناها مغلقتان، وتحسّ به يعيش في مكان بالعتمة، وأنه أشدّ برودة حيث

هو، أكثر شتوية هناك، وتريد أن تأخذه بداخلها، تسعى أن تعرفه بأيّ فضاء حيث تكمن فوضاه، بالحجرات ناعمة الأركان والأفعال المفكّكة، أجزاء الكلام حيث يعني وضع وجوده، وفي المكان الماديّ حيث يعيش راي فيه، حياً من جديد، كلمة بكلمة، لمسة بلمسة، وهي تفتح عينيها وتغلق عينيها وتفكر بومضة عين أن العالم قد تغيّر.

كان ينتهك حدود الإنسانيّ فيه.

سكنت وهلة عن إجابة الهاتف، كما تفعل بصورة متقطّعة من الأيام الأولى التي انقضت، وحين لقطت السماعة ثانية، استخدمت صوتاً آخر.

تنسجم عيناها مع سماء الليل. مضت بعيداً عن المنزل، بعيداً عن سفح النور الكهربيّ، أصبحت السماء أعمق. راقبت طويلاً فبدأ النور ينتشر ويذوب ماضياً نحو سكون أعمق، ينمّي أطواره والمقادير والسنين الضوئية بأرقام يصعب بلوغها حيث ينبغي على المرء أن يخترع أسماءً بلهاء لتمثّل صفوف الآحاد والأصفار والقوى والأبعاد حيث لغة وقت النوم بالطفولة هي وحدها التي تنقذنا من الرعب والخزي.

في البداية استخدمت صوتاً على الهاتف لا يخصّ أحداً، صوت بشريّ محايد الجنس، ثم شرعت تستخدم صوته بعدئذ. صوته، صوت حادّ جاف، بجسم مجوّف، كطير يهمهم على لسانها.

فن الجسد بتطرفه: بطيء، مقتصد ومعذّب

نجلس بالحجرة العلوية المعتمة في مقهى عربيّ في كيمبردج، ماساشوسيتس، وتتناول لورين هارتكي سلطة جبن الماعز، بجشع، كالمجنونة بها.

بين لُقيماتها تتكلّم عن فاصل العرض الأخير الذي ابتكرته في فضاء محصّن بمركز بوسطن للفنون.

حوّرت نفسها بشكل صادم لأجل هذا الحدث ورغم انتهاء العرض القصير زمنياً، إلا أنها تواصل التطلّع. جيداً، وهي ضائعة.

ليست شاحبة الجلد كأنها دون لون، دون دم، سرمدية. بل نحيلة وعيناها بارزتان قليلاً. شعرها منفوش، دون زينة، مقصوص دون تشذيب، وتحوّل الآن بريقه الكستنائيّ الطبيعيّ إلى أبيض رماديّ، بآثار قرنفلية باهتة.

هل أستخدم كلمة «أمهق»[1] وأتناول الغداء في هذه البلدة ثانية؟

تقول «باطل. الكلّ باطل، لكن الباطل أساسيّ للممثل. فراغ. هذا ما تأتي منه الكلمة. وهذا ما أعمل له وأبني عليه».

هارتكي، 36، كانت متزوجة من مخرج السينما راي روبلز حين

(1) أمهق: لبنيّ البشرة، أبيض الشعر، قرنفليّ العينين(م).

انتحر. أبوها، د. روبرت هارتكي، معلّم تقليدي يُمضي تقاعده كمتطوّع ميدانيّ على أحافير أثرية في بحر إيجه. أمها الراحلة، جنفيف لاست، كانت عازفة هَارْب بفرقة ميلووكي السيمفونية. لها أخ أكبر، تورد، متخصّص صينيّ بوزارة الخارجية.

تقول «لا أعرف إن كان فاصل العرض قد راح حيث أردتُ له أن يروح، فلا يزال بعضٌ منه داخل رأسي، يعيد تشكيل نفسه».

فاصل العرض يُدعى زمن الجسد، عُرض في البلدة ثلاث ليال، لم يُعلن عنه سوى بكلمة بسيطة، وجذب جماهير شغوفة لم تحافظ على كثافتها طيلة مدة العرض. أرادت هارتكي بوضوح أن يحسّ جمهورها بالزمن في مضائه، عميقاً، مؤلماً. وهذا ما حدث، مما سبّب انسحاباً بين القلائل المتورّطين هناك.

فاتهم أفضل ما بالعرض.

هارتكي مجرد فنانة جسد تسعى إلى رجّ الجسد. جسدها عموماً. هناك رجل يقف في معرض فنيّ بينما يطلق الرصاص على ذراعه أحد الزملاء. هذا فنّ. هناك رجل موشوم بوفرة ليوائم نفسه مع تاج الشوك. هذا فنّ. عمل هارتكي لا يباهي أو يؤذي نفسه. فهي تمثل، تعمل دائماً على أن تصبح أخرى أو تستكشف جذر هوية ما. هناك امرأة ترسم لوحات برحمها. هذا فنّ. هناك رجل عارٍ وامرأة عارية يحملان على بعضهما البعض تكراراً وبسرعة متزايدة. هذا فنّ، جنس وعدوانية. هناك رجل بلباس نسويّ تحتيّ دام يكوّم جبلاً من لحم هامبورجر. هذا فنّ، جنس، عدوانية، نقد ثقافيّ واقعيّ. هناك رجل يدفع مسامير في قضيبه. هذا محض واقع.

يبدأ فاصل عرض هارتكي مع امرأة يابانية طاعنة السن على خشبة مسرح عارية، تُلمح إلى دراما نوح بسلوكية نمطية، ثم تنتهي

بعد خمس وسبعين دقيقة مع رجلٍ عارٍ، نحيل وفاقد للنطق، يسعى مستميتاً ليخبرنا عن شيء.

رأيتُ اثنين من العروض الثلاثة ولم يكن عندي فكرة عن كيفية تحوير هارتكي لجسدها وصوتها. ستتكلّم عن الموضوع بمصطلحات عامة فقط.

تقول «الجسد لم يكن أبداً عدوّي. أحسّ دوماً بالذكاء في جسدي. لقد درّبته على فعل ما لا تستطيعه أجساد أخرى. فيمتصّني بطريقة غير مبالية. أحاول أن أحلّل وأنقّح».

(كشف شخصيّ. أنا وهارتكي زميلتا دراسة سابقة ظللنا بلمسة معتادة بديعة. اعتدنا على الكلام فلسفياً. كنت أعتصم بالمقعد في المحاضرات. وهي تبحث في تخصّص المادة حتى طُردت من المدرسة لتنضم إلى فرقة من ممثّلي الشارع في سيتل).

خلال فاصل العرض، معظمه، هناك صوت مصاحب، صوت إنسان آلي مجهول لجهاز الردّ بالهاتف وهو يلقي إعلاناً عادياً. يتم تشغيله بقسوة فيبدأ نسج نفسه على نسيج العرض البصريّ.

يرشّح الصوت القسم الأوسط خصوصاً. هنا امرأة بلباس عمليّ، تحمل حقيبة، تنظر للوقت في ساعة رسغها وتحاول مناداة تاكسي. تنسلّ بصورة رسمية أكثر (ربما بتأثير من اليابانية الطاعنة) من فعل لآخر. تفعل هذا مراراً، مرات بلا حصر. ثم تفعله ثانية، نصف دوران بحركة بطيئة للغاية. قد تجد نفسك تنظر وتنصت في فتنة منوّمة، تحسّ بالتوقّف جسدياً وذهنياً، أو تنظر في ساعتك وتمضي كالأخرق نحو الممشى وإلى الليل.

تقول هارتكي «أعرف أن هناك من ظنّ أن فاصل العرض بطيء للغاية، وممِلّ بالتكرار، كما أخمّن، وهادئ. لكنه زاخر بالأحداث.

حشدت فيه الكثير. لا بد أنه استثنائيّ، أبطأ حتى مما يجب، أطول حتى مما يجب. ينبغي أن تظلّ ثلاث ساعات خطيرة».

«لمَ لا تكون أربعة؟ لمَ لا تكون سبعة؟»

تقول: «لمَ لا تكون ثمانية؟»

أسألها عن الفيديو الذي يدور مع فاصل العرض، مسلّطاً على الحائط الخلفيّ. يظهر ببساطة طريقاً دائرياً مزدوجاً، بمرور خفيف. تمضي سيارة باتجاه واحد، وتمضي سيارة باتجاه آخر. هناك مجاز بعرض رقميّ يسجل الزمن.

تقول: «شيء عن الماضي والمستقبل. ما قد نعرف وما لا».

«لكننا نعرف كليهما هنا».

تقول: «نعرفهما كليهما. نراهما كليهما»، وذلك كل ما تقوله.

أجلس وأنتظر. ألوك برفق بابا غنوج. أتطلّع في هارتكي. ما هو البابا غنوج؟

تقول بعد وهلة «ربما فكرتي أن أفكّر في الزمن بشكل مختلف. أوقف الزمن، أو أبسطه، أو أكشفه. أصنع حياة ساكنة هي العيش دون زواق. حين يتوقف الزمن، نتوقّف. لا نتوقّف، نتعرّى، أقلّ ثقة بالنفس. لا أعرف. كما بالأحلام أو الحمّى الشديدة أو إدمان المخدّرات أو الاكتئاب. ألا يبطئ الزمن أو يبدو أنه يتوقّف؟ ماذا يبقى؟ من يبقى؟»

آخر أجسادها، الرجل العاري، مجرّداً من لغة وثقافة معروفتين، يتحرك بسلوك فضوليّ، كمن في حجرة معتمة، ببطء وإيماء أشدّ. يريد أن يدلّنا على شيء. صوته مسموع بوضوح، متقطّع، على شريط، وهارتكي توقّت الكلمات بشفتيها.

هل نظرت مرة على جسد بخشبة مسرح ورأيت أحداً جدّ مستوحش؟

كلماته تتراكم في مونولوج دون سياق. أفعال وضمائر مبعثرة في الهواء ثم يحدث شيء مجفل. يقفز الجسد إلى مستوىً آخر. بسلسلة حركات متشنجة كهربية، يندرس الجسد من غير تحكم، يُساط ويلفّ بصورة مروّعة. تجعل هارتكي جسدها يؤدّي أشياء رأتها فحسب في أفلام الرسوم المتحركة. نوبة مرض تطير بالرجل ظاهرياً بعيداً عن واقع وإلى آخر.

يستعدّ فاصل العرض للنهاية.

آخذ نفَساً عميقاً وأسأل السؤال الذي لا أودّ سؤاله. يتعلق بـ «راي روبلز»، زواجهما الوجيز وصدمة انتحاره.

تنظر لي مباشرة. ألحّ، في بؤس، وأُذكّرها بالمرة الوحيدة التي قضيناها معاً، ثلاثتنا، في روما، حين ظهر راي وقت العشاء مع قطّة متشرّدة على كتفه.

تدخل الذكرى عينيها فتضعفها قليلاً. أريد أن ألوم المسجّلة الراقدة على المائدة. فهي صغيرة مصمّمة بطول أربع بوصات، وزن أوقية ونصف، بصوت رقميّ يخزّن الرسائل، وهذا هو الشيطان الذي يجعلني أفعل هذا.

تتطلّع في الفضاء.

«كم يكون بسيطاً إن استطعت القول إنه فاصل عرض عما حدث مباشرة لـ راي. لكني لا أستطيع. سيكون لطيفاً إن استطعت القول إنه دراما الرجال والنساء ضدّ الموت. أودّ قول هذا لكني لا أستطيع. شيء صغير ومعزول ومعقد ولا أستطيع ولا أستطيع ولا أستطيع».

ثم فعلت شيئاً جعلني أتجمّد في مقعدي. تحوّلت إلى صوت آخر. صوته، صوت الرجل العاري، صوت شبحيّ كآلة نفخ في خزانتك. غير مسجل لكنه حيّ. غير موقّت بالشفتين لكنه واقعيّ. يكلّمني بينما أفتّش في وجه صديقتي لكن لا أراها بالضبط. لا أعرف ما تفعل. لا أكاد أصدّق أنها مزوّدة بأعضاء ذكريّة، كما بفاصل العرض، ترقيعية طبعاً، وربما كانت ضمادة من طراز أول بنبرة جنسية تبين عن ثدييها، مع نَثرة من شَعر صدر ملصقة عليها. أو أنها درّبت أعلى جسدها ليتسطّح وأسفل جسدها ليتبرعم. لا تضعه أمامها.

تقول إنها ذاهبة للمرحاض. حين ظهرت نادلة بالشيك، خطر لي أن أغلق مسجّل الصوت الآن.

إن طاقة فاصل العرض في جسد هارتكي. تجعل نسويته أحياناً غامضة جداً وقوية جداً حتى لتطوّق الجنسين وعدداً من الحالات غير المسماة. في الماضي كانت هارتكي تسكن أجساد المراهقين، وعَاظ عيد العنصرة[1]، امرأة عمرها مائة وعشرون عاماً يطيل بقاءها اللبن، وما تذكره أكثر، رجل حامل. إن فنونها بفاصل هذا العرض مبهمة، بطيئة، صعبة ومعذّبة أحياناً. لكنها لا تسبب لوعة كبيرة من الصور والأجهزة المبينة. إنها عنك وعني. ما يبدأ في آخر معزول يصبح شائعاً وشخصياً. إنها عمّن نكون حين لا نكرّر سماع من نكون.

أجلس في انتظار هارتكي لكنها لا تعاود المجيء.

ماريلا شابمان.

(1) العنصرة: عيد مسيحي، يقع يوم أحد، (م).

الفصل السابع

السنجاب الميت الذي تراه بالمدخل، ميتاً ومضروب العنق، يبدو كشريط من خيش ملفوف، لكنك تنظر إليه، تسير أمامه، هكذا، بمسحة مختلطة من الفزع والشفقة.

فهو مستوحش. دخان يتدحرج من فراغات بالتلال المشجّرة والسراخس محترقة بدرجة بنيّة مع الزمن. هناك صرامة القضاء على أرض قاحلة، في ظلال أرض مشتعلة تحت سماوات معتمة، وفي جلاميد الصخر المنتشرة على البحر عند حافة غابات الصنوبر، مزاج صخريّ قديم، تيبّس من عَقد أيمانٍ وعناد فؤاد. ولأنه قال ما قال، فقد تكون هنا في النهاية.

تلبس سترة وضيعة، صوفية، كانت تلبسها، مصادفة، من زمان، ثم تقف هناك لتقرّر إن كانت ستخلعها ثم تلبسها ثانية أو تحسّ بأرق طفيف من رقبة السترة حين تلامس أعلى رقبتها. كانت صوفية، كرقبة ملاّح. أحسّت بالعلامة التجارية تحتكّ بحلقها. لا تحتكّ بل شيء آخر، فتدسّ إصبعها السبابة وأصابعها الوسطى داخل الرقبة، بينما يندفع كوعاها لأعلى وإلى الخارج، تفكّر بقرارها الفارغ.

قالوا إنه ضارٍ، شتاء ضارٍ.

لكنها هنا ثانية، بالمنزل، كما أكّد في قوله عليها، بعد حدود اتفاق عقد الإيجار. لا تذكر كلماته بالضبط. لكن هذا ما فهمت منه قوله، أو لأن كلماته غير دقيقة، أو لأن معناها واضح أو غائم. مدّدت

عقد الإيجار، بأي كلمات يستخدمها، وعرفت أنها تصرّفت هكذا لتتشبّع من حقيقة تعليقاته، التي قد تبطل أيّ حقيقة هناك. ليس الظَرف ما جعلها هنا، أو الفرصة المجفلة، بل التعليق نفسه، الذي يستدعيه تذكّرها إياه.

ألقت عنها السترة فخبطت يدها باللمبة المعلّقة، فهي تنسى دائماً أنها هناك، ثم جذبت السترة إلى تحت في رأسها، صدر السترة أطول من ظهرها، كما يفعلون في تايوان.

عرفت أنها الخامسة والنصف فتطلّعت في ساعتها. ذلك ما كان.

حين لم تستطع تذكّر هيئته، مالت إلى مرآة فكان هناك، ليس عن حق، بل مجرد لمعة، كاد أن يكون هناك بشكل معين، بطريقة تفكير، في بعض المرايا أكثر من الأخريات، أكثر من مستنسخ مُقبض، يعتمد على الساعة والضوء ونوعية الزجاج، استراتيجيات الزجاج، بانقلابه يمنة ويسرة، في هذه الحجرة أو تلك، فكلّ صورة بكلّ مرآة تشكّل نوعاً من الواقع، حتى حين تتوقّع أن ترى نفسك.

صعدت السلالم، تلمس قمة قائم الدرابزين حين وصلت المهبط. هذا ما يستلزم أن تفعله دائماً، لتحسّ ملمس حبّة الصنوبر، بالشوك المحفور وأخاديد الخشب. العمود مستدقّ على شكل شوكة وكان أفضل ما بالمنزل، تقريباً، مع أرضية المطبخ الخشبية.

تطلّعت إلى كوتكا، بعد العشاء، في فنلندا.

بعد خمسة أيام قادت السيارة للخروج إلى هذه النقطة، عند لسان البحر، فالنوارس ساكنة تبدو قصيرة بدينة قليلاً على أرجل مرتكزة، استعداداً لطيرانها كحوامل مائلة نحو هذا الزمن الذي يكتنف الصخور، للخروج من الجيولوجيا، بعيداً عن العلم والعقل، يمنحها تحليقاً وارتفاعاً وجسداً، إلى عضلات طيرانها وجريان دمها، إلى

قلوبها الدقّاقة الثابتة، قلوبها متراوحة الإيقاع، وقد عرفت أن هذا هو اليوم الذي سيحدث فيه ما يحدث.

أنصتت للصوت الذي يحدثه الورق الشمعيّ، في تقدّمه على طول حافة العلبة المثلوم وهو يمزّق الورق عن لفّاته.

بدأت الهوائيات ترنّ، حدث شائع الآن.

جلست لتناول طعامها بالصحن وفكّرت: لستُ جائعة. الهاتف يرنّ. كانت تفكّر بالكلمات أحياناً، صريحة ومتشكّلة تماماً. لا تتيقّن إن كان هذا بدأ يحدث، من يوم أو شهر، فربما كان هذا هو الحال أبدياً.

ظنّت أنها قد تسلّم نفسها إلى واقعه، تستنبط منطقيات كلمة وفكرة، كيف بدا أنه يتّخذ طريقه نحو عبارة أو حجرة.

ربما ننسلّ هناك في أوقات إلى واقع آخر لكن لا نذكره، لا نستطيع التسليم بواقعيته فهي مهلكة حتى ليصعب امتصاصها.

قد يحدث هذا. فاستحضرته بنقطة معينة، ذهنياً، في الحجرات والصالات، ثم توقّف.

سارت على درب الحريق أمام المنزل المتداعي بالصليب الأبيض المدهون حديثاً مرتفعاً من نقطة الإطار A وعلامة أُنقذ خارج طلّته.

نظّفت الحمّام، مستخدمة زجاجة رشّ مطهّر على هيئة مسدس. ثم وجّهت فم مسدس الرشّ إلى رأسها، ترى نفسها تفعل ما يفعله أيّ امرئ، وحيد، دون إشارة خاصة لظروفه. زجاجة عطر الصنوبر، زجاجة المنظّف بقبضة مسدّس لها رقاقة فلّين وحاقن، قاتل عفن فطريات، ثم وجّهت الفم الخطم إلى رأسها، ضغطت إصبع الزناد

البلاستيكيّ نحو لسانها المطروح للخارج لزيادة التأثير.

فكّرت، هذا ما يفعله الناس، حين يستوحشون في حياتهم.

كانت سعيدة نوعاً، بنواحٍ كثيرة، مطويّة بالأمل، تملك المنزل لتعود إليه بعد صباحات طويلة هائمة في وقفات جنب صنوبر الحطب وشجيرة صمغيّة، حيث أطلقت اسمه على نباتات مستنقع، تلفّظت الكلمات، أو ربضت فترات الظهيرة كلّها فوق منحدرات جرانيتية ضخمة بعيداً عند قمة الجبل بالبحر، وراقبت بنية الطقس ورياش المنحدر الهادر منطلقاً لأعلى، فهذا ما يحدث حين تعود، تُجري يدها على شعث طحالب البحر وتعرف أنها ترقَى السلالم، فتلمس رأس عمود الدرابزين عند المهبط، وتسير عبر الصالة إلى زمنه.

الحكايات التي قصّتها على نفسها لا يبدو أنها تخصها بالضبط. كانت طائشة فبدا الحكي كأنه خارج من مصدر أعمق، مهما كان يعنيه ذلك، فهناك ما يباغتها. من أين تخرج الحكايات؟ لا تخرج من صحيفة. فهي لم تقرأ صحيفة من زمان. كانت تتطلّع في صحيفة، عند محل عامّ بالبلدة، بصفحتها الأولى فقط، وبدا هذا إطاراً آخر، هستيريا ماكرة لصورة وحبر، عالم يفرّ بسهولة نحو حبّ وضغينة، موثوق فيه وقابل للنسيان بوصفاته وحروبه وأخطائه الطبوغرافية.

حين سارت للخروج من المحلّ، رأت المرأة اليابانية قادمة نحوها، امرأة بشعر أبيض، تلبس سترة محشوّة ويداها محجوبتان. يداها مضمومتان لأعلى داخل كُمَّي سترتها، استجلاباً للدفء، وتنتظر المرأة، كُمّان كما يبدو فارغان، وتسبّ نفسها لأنها لم تضع هذا بفاصل العرض، فربما كان خرافياً، دون يدين، هو كلّ ما تاقت لمعرفته عن المرأة ليتمّم فاصل العرض، يدان مفقودتان دون تفسير، وعذّبت نفسها بلغز الجسد الموميء، نصف المضاء، دون يدين،

وابتسمت بزيف للمرأة وهي تعبر.

لمَ لا تنغمر في هذا؟ دع الموت يطرحك أرضاً. امنح الموت حكمته.

لماذا لا يجلب عليك موت من تحبه الدمار الشنيع؟ فأنت لا تعرف كيف تحبّ من تحبهم إلى أن يختفوا فجأة. ثم تفهم كيف ابتعدت قليلاً عن معاناتهم، كم كنت توفّر على نفسك غالباً، بقلب غير محترس إلا نادراً، فتشغّل شبكاتك من العطاء والأخذ.

ضمّت هذه الأفكار بكل ما استطاعت. عينان، عقل وجسد. تنقّلت بشوارع البلدة المنحدرة غير ملحوظة، وهي تضمّ هذه الأفكار، تشتري بقالة وأقراصاً مدمجة وتلعب ضمن هذه الأفكار إلى نقطة محدّدة، بالصالة الطويلة، بين الأقفال، الأدوات والزجاجيات.

لمَ لا يجلب عليكِ موته الفضيحة الكلية من أسىً منزوع الثياب؟ لماذا تسكنين موته؟ أو تستسلمين إليه بحرمان من الموت طيّب الطعم رقيق الشفة؟ لماذا تتخلّين عنه إن كان بمقدوركِ السير عبر الصالة وإيجاد طريقة ليكون في متناولكِ؟

فكّرت، انغمر خفيضاً. دعه يطرحك أرضاً. وامض حيث يأخذك.

تفكّر أحياناً في هذه الصيغ المحفّزة، وهي تخاطب شخصاً لم يكن هي بالضبط، وتفكّر أحياناً أخرى في صيغ أخرى. تفكّر في أوجه، هناك بالهواء، في أوجه محدودة للرجل الفقيد حين لا تستطيع استعادته، فقط خارج مآقي عينيها العظمية.

أنا لورين. لكن أقلّ وأقلّ.

حين خرجت من السيارة، كان هناك امرؤ. لم تخرج من

السيارة، فنصفها لا يزال فيها، تبدأ الوقوف، وفوقها لاح جسد على الطريق.

كادت أن تسقط عائدة بالمقعد. لحظة صادمة. رفعت إليه بصرها، فكلّمها، رجل ضخم بمنتصف العمر.

حين نهضت بطولها الكامل، لمحت سيارته، مركونة جنب المنزل. أنصتت إليه. حاولت أن تنصت لما يقول وتقرأ الموقف، تتثبّت من حدوده بدقّة.

«أؤكّد لكِ أني لا أقصد التطفّل. حاولت الاتصال عدّة مرات. لا ردّ. أتفهّم كلياً. أنت هنا لتهربي من ذلك».

«ولماذا أنت هنا؟»

غضبت. بدأ الوعيد يشحب، بأثر واضح. بدأ الخوف يذوب عائداً لجسدها، بمجرى دمها وألياف أعصابها، بسُليمات أطراف أصابعها، فأغلقت السيارة بعنف، صفعت الباب لتغلقه.

قال بنبرة منفصلة «لنتكلّم عن المنزل. يبدو أنه منزلي، لا يزال. منزل زوجتي ومنزلي».

سار عائداً وبيُسر تطلّع حوله في المنزل، ليستدعي مادّة للحوار: منزله. ولأنه يتطلّع الآن، فليس هناك من شكّ.

«هناك ما تودّ النقاش فيه».

«نعم بالضبط»، قال وبدا منفجراً بنوع من الهياج، مسروراً بقبضتها على اللحظة.

ساد صمت. بالرجل هواء منفعل طفيفاً، توعّك قد تشكّل عبر سنين.

قالت: «مَن يدعو مَن للدخول؟»

رفع يديه.

«ليس بالضرورة. لا تظنّي. لا، لا، بتاتاً».

وضحك من ملاحظتها. صدمته أخيراً فضحك، أبان عن أسنان بنية داكنة. فانتظرت. انهمكت في الموقف. بدأت تحسّ أنها تتواءم مع شيء، ترتاح للخروج هنا، بالمدخل، مع صاحب المنزل.

«أكان مُرضياً؟»

«غالباً، أعتقد، نعم».

«لأنه، إن كان هناك شيء».

«لا، رائع، أعتقد. حجرات».

«نعم».

«حجرات وحجرات».

الجو برد. استفهمت إن كان مفترضاً أن يكون شديد البرودة.

قال: «نعم، إنه لعائلة. هل ترين، للأبد، لكن الصيانة».

«أتصوّر».

«الشغل، الرعاية. لدينا تاريخ من سُكنى عائلات كبيرة، أنا خائف. هناك لا نهاية، كما تعرفين، من أمور التصليح وإعادة الدهان. شيء يحتاج دائماً للسهر عليه».

انتظرته ليستذكر زوجته «ألما» في هذا المقام، والحقيقة أن الأطفال كبروا الآن ويعيشون في مكان آخر.

«وماذا نأمل في الواقع».

مدّد جسده، أحكم شدّه لأعلى بازدراء ظهور محدود من توقّع مستنير. رأته في هذه اللمحة رجلاً يحاول أن يحلحل نفسه من خجل وعوائق حياة كاملة.

«أذلك ما لا يعنيكِ».

أنصتت، وهي ترى الكلمات محدّدة، تحبه أكثر قليلاً، وتحسّ بتنبيه بسيط، تحسّ بكيانها داخل اللحظة.

«نعم».

«ترين، هناك صندوق بأدراج. مخزن في حجرة بالدور العلوي. أظنّه، كان ملفوفاً. ملفوفاً بالدثار الذي يستخدمونه. ربما لمحته. فقد كان على وشك أن يتحرك، محمولاً، بدرجة ما، تعرفين أن هذه الأشياء لا تحدث دائماً حين يُفترض بها ذلك. كان قطعة أثاث لطيفة، من جزأين، وقديمة نوعاً».

هذا غير ما كان حريّاً به أن يقوله.

قال: «إحدى الحجرات غير المستخدمة بالطابق الأعلى، ملفوفة بملاحف. وماذا تحبين أن نفعل».

لاحظت الزخرفة المشجّرة بأوعية الدم في وجهه، رجل ضخم، نعم، ويميل نحو، يميل إلى طاعن في السن، بدأ جلده يتمدّد، خطوط عينيه تتعمّق، وكان حريّاً به أن يقول شيئاً عن مستر توتل، لماذا غادر وأين ذهب وأيّ شيء آخر يمكن قوله عن الرجل، ليصفو، ليفسّر ويحلّل.

«هل، لو أرسلنا شخصاً ليحضره، فهل يضايقك الإزعاج. حاولنا الاتّصال والمرأة اتّصلت، تمثال واقعيّ. قطعة قديمة من ممتلكات العائلة. فكرنا أن نعيد تأثيثها ونضعها بحجرة نومنا، في البيت. تكلمنا

عنها زمناً. المنزل الحالي، طبعاً. لكن ماذا عن آخر وآخر».

خشي أن يكفّ عن الكلام فهي لم تمنح إشارة لأيّ طريق وبدت كمن حرّرت نفسها من المشهد. سار عائداً بنصف دورة أخرى ثم توقفا هناك في البرد، المالك والمستأجرة عند المدخل، يتطلّعان بغموض إلى المنزل.

حاولت تذكّر هيئته فنسيت اسمه. لكن لفترة وجيزة. كانت وجيزة وذلك لم يكن اسمه. كان اسمها الذي منحته إياه.

في الصباح سمعت الصوت.

عرفت أنها السابعة والثلث، تقريباً، وتطلّعت في ساعة المطبخ. ذلك ما كان.

فهمت على الفور أن هذا الصوت لا يصدر من الدور الثالث. كان مختلفاً، ولا يأتي من أعلى بنيان المنزل، كان مخفياً أقلّ عما قبل.

سارت بطيئاً بالحجرات، تعرف أنه قد يُحدث هذا، كترنيمة، صوت رجل يرنّم، ترنيمته، وأسرعت نحو أعلى السلالم وقاست من ثنيات يدها على قائم الدرابزين. استبان لي أنه موجود هنا. فالساحل مقفر، في هذا الموسم، وعليها أن تلمس قائم الدرابزين كلّ مرّة.

انتقلت أمام المهبط ودارت نحو الصالة، تحسّ بما كانت تحسّ به، مكشوفة، منفتحة، شيء قد تسميه المنحلّ، إن كان ذلك يعني شيئاً، وتعي العالم في كل خطوة.

عرفت كيف يحدث هذا، قادت بالسيارة أمام اليافطات المستخدمة حديثاً، عند حطب وقود مخزّن على كلّ سطح منحدر ومغطّى بقماش مشمّع خارج الجراجات والحظائر. ستعود للمنزل

وترتقي السلالم، أمام أشياء آلية ومحمولة، وسارت عبر صالة الدور الثاني، بحركة رتيبة، توائم نفسها مع جسد بعملية استرداد نفسها.

استطاعت سماعه في صدرها وحلقها، يتحدّث منوّماً، واقتربت من باب حجرتها، حجرة النوم، لم تكن بأعلى بنيان المنزل. لا شيء بحجرة الدور العلويّ غير مرآة زينة ملفوفة بملاحف رجل متحرك. كان زمانه هنا، بقياسه أو أبعاده أو أياً كانت العبارة الموظّفة التي تفكّر في استدعائها.

كانت حمقاء ألف مرّة. تحركت إلى الباب وهي حمقاء هذه المرّة أيضاً فلم يكن بحجرتها، تقود أمام جسم آلي ومستخدَم حديثاً، عند حطب وقود مخزّن بقماش أشرعة وخيام، فذلك كان حيث كان راي بكراً، بجسد واقعيّ، دخان في شَعره وملابسه.

عرفت كيف يحدث هذا، أمام نقطة اللعب، فقد أبت الاستسلام لحدود الإيمان.

إن مضت للحجرة، فستكون هناك فعلياً، الآن، وقت الليل، عارية. كي توائم نفسها مع اللحظة، تنضو عنها السترة الرثّة، وظهرها للفراش. تقف عارية القدم، ترفع ذراعها خارج السترة وتخبط يدها على شيء فوقها. تذكر اللمبة المعلّقة، خطأ مكانها بالحجرة، ظلّ معدنيّ يتذبذب، ومن ثم يدور، يبدو أنها تعرف ما ستراه.

يجلس على حرف السرير بملابسه الداخلية، يشعل آخر سيجارة لليوم.

هل يعجزك تصوّر مثل هذا حتى تراه؟

هل ما يحدث بعيد خارج التجربة التي أنت مرغَم على الاعتذار عنها، أو منحها أوراق اعتمادها الثانوية من سوء إدراك؟

هل الواقع أكثر فعالية مما يُحتمل؟

فخاطر إذن. ظنّ فيما تراه وتسمعه. إنه نبض كلّ حميم باطنيّ تحسّه في طرفَي حياتك.

جسمان واقعيان في حجرة. هذا ما تحسّ به نحوهما، بقلب مفضّض من نصف ثانية يأخذك إلى حافة عمود الباب، مع أيدٍ تلامس وتحتكُّ وأفمام تنفتح ببطء. قضيبه قائم بقبضتها القرنفلية المتوانية. فم كلٍ مفتوح جزئياً للسانيهما، حلماتهما، أصابعهما، أيّ بروزات لحميّة، وهمسات ما كان ويكون، ثم تنفتح عين كلٍّ منهما لروح الآخر.

توقّفت في حافة المدخل، واعية بنظرة وجهها.

ناما فعلياً واستيقظا ثم نزلا على الإفطار، حيث كانا مشوّشين بعاداتهما المنفصلة، يصبان الحليب ويرجّان العصير، زرياب أزرق يراقب من الملقم، وهي تستنشق حبيبات علبة الصويا. أبسط شيء بالعالم حين تمضي لسيارته وتأخذ مفاتيحها تخفيها، تدقدقها، تخبطها، تأكلها، تدفنها بتربة عظميّة في يوم مشرق باهر آخر الصيف، بعد عاصفة هدارة.

لكن قبل سيرها للحجرة، أحسّت بنظرة وجهها. عرفت هذه النظرة، المنسوجة بتوقّع مزيف.

سكنت لحظة، تفكّر في هذا، وقفت عند حافة الحجرة، توجّهت لتعود نحو الصالة، فتحسّ بفراغ حولها. كان ذلك حين ارتطمت بالأرضية، فاستندت لعمود الباب. دارت بطيئاً لتنزل، بعناية تقريباً، وفتحت فمها، آه، بمواء بقي كتيم الصوت. جلست على الأرض خارج حجرتها. لا يزال وجهها بعصابة مزيّنة، أثر يعبر العينين بمنظور العجائب. تطفو نظرتها حرّة تقريباً فاستطاعت نفخ خدّيها، بطفولة، ثم

أطلقت الهواء.

ظنّت أنه لن يضايقها النظر هناك. كان النظر مشجياً. سيزعجها بالحجرة المواجهة شرقاً نور الصبح، بثفله المغلّف وأنهار الغبار في ضوء الشمس وبكلمة ذرات، التي كانت أمها تحبّ استخدامها.

قد يكون هذا كلّه مجرد حلم يقظة إيروتكيّ. كان كلّه مدينة بُنيت على فكرة قذرة. وهي مهلوسة جنسياً، ها هي. وليس ذلك ما ظنّته.

جلست هناك، تفكّر في قرارها الفارغ. ثم شغلت نفسها بعمود الباب، بطيئاً، كلّها يتنفّس، ظهرها على الخشب المخدّد، ناهضة من مَجثَمها، تتسحّب فعلياً على امتداد الزمن. ماتت أمها وهي بالتاسعة. لم يكن ذنبها. فلا شأن لها في موتها.

الحجرة فارغة حين تطلّعت. لا أحد هناك. يتردّد النور فترى ألوان الحوائط والأرض الفعلية. لم تكن رأت الحوائط من قبل. الفراش شاغر. وكانت تعرف أنه شاغر كلياً لكنه يخطف البصر. تطلعت في الملاءة والبطانية الملتفّة على مطرحها بالفراش، وهو المطرح الوحيد المُستخدَم.

مضت إلى الحجرة وذهبت للنافذة. فتحتها. فتحت النافذة بعنف. لا تعرف لِمَ فعلت هذا. ثم عرفت. فقد ودّت لو تحسّ بسيلان البحر على وجهها ودفق الزمن في جسدها، ليدلّها على من تكون.

للمترجم

دواوين

1 - طور الوحشة، جماعة أصوات، 1980.
2 - قبر لينقض، طبعة محدودة، 1991.
3 - على تراب المحنة، هيئة قصور الثقافة، 1995.
4 - فحم التماثيل، دار شرقيات، 1997.
5 - الملاك الأحمر، دار الانتشار العربي، بيروت، 2000.
6 - مخلب في فراشة، دار الانتشار العربي، بيروت، 2000.
7 - بكاء بكعب خشن، دار ميريت، 2003.
8 - خضراء الله، دار الانتشار العربي، بيروت، 2004.
9 - ملاّحُ، تحبسه الرماح (الأعمال الشعرية - ج 1)، دار الانتشار العربي، 2006.

ترجمات شعرية

1 - أشعار سودرجران، (بالاشتراك)، دار شرقيات، 1994.
2 - قصائد حب، آن سكستون، (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، 1998.
3 - رباعيات مولانا جلال الدين الرومي، دار الأحمدي، 1998.
4 - الهايكو/رحلة حج بوذية، (شعر ياباني)، مركز الحضارة العربية، 2000.
5 - رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز، (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، 2002.

6 ـ نهايات، ديريك والكوت، (شعر)، مركز الحضارة العربية، 2003.
7 ـ رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز، (ديوان)، إبداعات عالمية، الكويت، 2003.
8 ـ كاس الألم، إديت سودرجران، (ديوانان)، مركز الحضارة العربية، 2004.
9 ـ أعشاش تحت القلب، (ديوان الشعر السويدي)، اتحاد كتاب الإمارات، 2004.
10 ـ جمهورية الوعي، (أشعار من 5 قارات)، مركز الحضارة العربية، 2005.

ترجمات روائية

1 ـ جاز، توني موريسون، دار شرقيات، 1995.
2 ـ فالس الوداع، ميلان كونديرا، روايات الهلال، دار الهلال، 1998.
3 ـ فالس الوداع، ميلان كونديرا، دار علاء الدين، دمشق، 2001.
4 ـ جاز، توني موريسون، دار علاء الدين، دمشق، 2003.
5 ـ الساعات، مايكل كننجهام، دار الحوار، سوريا، 2004.
6 ـ الساعات، مايكل كننجهام، روايات الهلال، دار الهلال، 2004.
7 ـ غرام، توني موريسون، دار الحوار، سوريا، 2004.
8 ـ فالس الوداع، ميلان كونديرا، مهرجان القراءة للجميع، هيئة الكتاب، 2005.
9 ـ في عشق جيفارا، آنا ميناندس، دار كنعان، دمشق، 2006.
10 ـ مذكّرات شخص، مايكل كننجهام، دار الانتشار العربي، 2006.
11 ـ جوستين، المركيز دو ساد، دار الانتشار العربي، 2006.

ترجمات قصصية

1 ـ مرآة الحبر، بورخيس، آفاق الترجمة، هيئة قصور الثقافة، 1996.
2 ـ كتاب الحواس، ايتالو كالفينو، مركز الحضارة العربية، 1999.
3 ـ شجرة مطر، (قصص معاصرة)، مركز الحضارة العربية، 2001.
4 ـ مرآة الحبر، بورخيس، دار علاء الدين، دمشق، 2003.

5 ـ أصل الطيور، (بالاشتراك)، (قصص إيطالية)، دار كنعان، دمشق، 2006.

ترجمات نقدية

1 ـ الخلاص بالحرية (مقالات عن الأدب العربي)، مركز الحضارة العربية، 2003 .

2 ـ الضوء المشرقيّ، أدونيسِ، (بالاشتراك)، دار بدايات، سوريا، 2005.

3 ـ تخمينات عن الأدب العالمي، مركز الحضارة العربية، 2005.

فنانة الجسد

رواية تعيش الحياة

تقدّم «فنانة الجسد» رؤية ما بعد حداثية للحياة، تعبر عن نفسها في الحكاية التي يتم سردها بصوت يعيش زماننا، صوت أرواح منسية تسكن أصابعنا وتحاور ثقافتنا فيما هو أكبر من الحياة، أكبر من أجسامنا وهي تعيش الحياة.

رواية عن الزمن والحبّ: هل نعرف الحبّ فقط، حين نفقده؟ فالحياة تمضي، بصدمة غير متوقّعة... وهل نحسّ بالذنب لأننا عاجزون عن الفهم؟ فيا لها من رحلة! في البداية تحبطك الأسئلة، ثم تسكن حياتك بمعانيها الراقدة كأصل الغصن في الغصن.